

محنة العراق

أشرف عمار



إهـــــــداء ٢٠٠٦
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

محنة العراق

أشرف عمار

تصميم الغلاف : صبرى عبد الواحد
الإخراج الفنى : فاتن رضا

إهداء

إلى شعب العراق..

القسم الأول

من سقوط بغداد
إلى سقوط صدام

-(١)-

المقاومة على طريقة صدام حسين

كان سلوك القيادة العراقية فى مواجهة الغزو - أولاً - والاحتلال - بعد ذلك - بالغ الخزى والعار، ودليلاً دامغاً - فى حد ذاته - على ديكتاتوريتها وانقطاع صلتها بأية قدرة على المقاومة وكفاءة الصمود.

ففى لحظة الغزو لم تستطع تعبئة الأمة وجمعها حول مشتركات عامة - محددة وواضحة. وفى زمن الاحتلال اختبأت مذعورة.

ولنقارن بين رد فعل الرئيس صدام حسين على الغزو وبين رد فعل تشرشل - زمن التهديد النازى لبريطانيا، وستالين - عندما كان العدو الهتلرى على أبواب موسكو - لندرك فداحة التردى الأخلاقى - والسياسى - والإنسانى الذى انحط إليه النظام العراقى.

فى ١٣ مايو ١٩٤٠ ألقى تشرشل خطاباً للأمة البريطانية قال فيه «ليس عندى ما أقدمه سوى الدم والعمل الشاق والدموع والعرق.... تسألون ما سياستنا؟ أجيبكم: الحرب فى البحر والبر والجو بكل قدرتنا وبكل القوة التى يمكن أن يمنحنا الله إياها... تسألون ما هدفنا؟ أستطيع أن أجيبكم بكلمة واحدة: النصر.. النصر بأى ثمن. النصر برغم كل إرهاب. النصر مهما كان الطريق طويلاً وشاقاً. لأنه بدون النصر لا يكون ثمة بقاء. ولتفهمونى جيداً: لا بقاء».

وفى خطاب آخر فى ٤ يونيو ١٩٤٠ يقول: «سوف ندافع عن جزيرتنا مهما كلفنا ذلك، سوف نقاتل على الشواطئ، وسوف نقاتل على المطارات.،وسوف نقاتل فى الحقول وفى الشوارع، وسوف نقاتل فى الجبال، ولن نخضع أبداً».

أما ستالين، ففى خطابه يوم ٣ يوليو ١٩٤١ يقول «فلينزع رجالنا الخوف من قلوبهم فى هذا الصراع القاسى ولينطلقوا إلى حربنا التحريرية بكل تفانٍ ونكران ذات من أجل إنقاذ الوطن وتحطيم المستعبدين الفاشيين.. أن يهبوا للدفاع عن كل بوصة من أرضنا السوفيتية، وأن يقاتلوا حتى القطرة الأخيرة من دمائهم من أجل مدننا ومن أجل قرانا».

ثم إنه يقيم احتفالاً فى الساحة الحمراء بموسكو والعدو على

بعد ٦٠ كم منها تحدياً للغزاة. وذلك في ٧ نوفمبر ١٩٤١ حيث يقول لمواطنيه «... إن العالم بأسره يرى فيكم قوة قادرة على إفناء قطعان الغزو الجائعة من قطاع الطرق الألمان. والشعوب المستعبدة في أوروبا الواقعة تحت النير الألماني تنظر إليكم على أنكم محرروها. إن رسالة عظيمة في تحرير الشعوب تقع على كاهلكم. فكونوا إذن جديرين بهذه الرسالة».

لا يحتاج موقف تشرشل وستالين منا ـ بالطبع ـ مزيداً من الثناء أو الإفاضة في القول. يكفي فقط الإشارة إلى أن ذلك كان منهما ـ بصرف النظر عن عنصر البطولة الشخصية ـ تعبيراً بالغ الدقة عن جبهة المقاومة العريضة التي انطلقا منها وجسداها. عن حقيقة الالتحام الكامل بين القيادة والشعب.

ولأن نظام صدام حسين ـ على العكس تماماً ـ كان مفلساً وعقيماً. جاهلاً وخطيراً؛ فقد ظل معلقاً في الهواء، بلا أية قاعدة جماهيرية تسنده أو تحميه؛ لذا فإن أية دفعة بسيطة ـ على رغم جبروته وطغيانه ـ كانت كافية للقضاء عليه.

وقد كانت خيبته اللفظية ـ في مواجهة الغزو ـ انعكاساً بالغ الدقة ـ كذلك ـ لإفلاسه الشامل على جميع المستويات.

ماذا قال صدام حسين؟ وماذا فعل؟.. لقد استخرج من جعبته بضعة خطابات باللغة الرداءة. استعاد فيها مفردات بالية لا يفهمها أحد، على مثال «أطلق لها السيف لا خوف ولا وجل... وليشهد لها زحل... قد جاش العدو لها وليس يثنى إلا العاقل البطل.... دع الصواعق تدوى فى الدجى حمماً... وأشرق بوجه الدياجى كلما عتمت.. واقدح زنادك وابقى النار لاهبة يخافها الخاسئ والمستبعد النذل» !!!..

(خطاب صدام حسين صباح ٢٠ مارس ٢٠٠٣)

فى خطاب آخر من هذا النوع **(يوم ٢٤ مارس)** يستهلك صدام جانباً كبيراً من خطابه فى ذكر أسماء القادة العسكريين فى الفرق والأفواج والفيالق بالاسم والرتبة والنسب القبلى ويقول لمواطنيه«.... أعد لكم المتميزين على رأس تشكيلاتهم بالاسم لتحفظوا أسماءهم» !!!.

هل هناك أى وجه للمقارنة بين هذه الحماقات وبين تشرشل وستالين؟!

وفى مرحلة السقوط والتخفى بعد ذلك فقد أشارت المصادر إلى أن صدام حاول بالفعل عقد صفقة مع الأمريكان.

وقد جاء بصحيفة الحياة اللندنية الصادرة فى ١

أغسطس ٢٠٠٣ ما مفاده أن صدام: «بعث برسالة إلى القيادة الأمريكية فى العراق، يعرض فيها المساومة معها على وقف العمليات ضد جنودها، مقابل أن توقف هى ملاحقتها له ولعائلته أن يتدبر أمر خروجه، وجميع أفراده من العراق» وأن حامل هذه الرسالة ـ الصفقة كان عبد حمود مرافق صدام الذى ألقى القبض عليه عندها. وتكفل الأمريكان بالرد ـ عملياً ـ على ذلك العرض بقتل نجلى الرئيس بعدها بأيام...) .

لكنه نظام مهزوم بالفعل حتى من قبل أن تقوم الحرب ويدخل تجربة القتال.

بل إن أبرز رموزه يمارسون النهب حتى اللحظة الأخيرة. وقد أصبح معروفاً الآن أن قصى صدام حسين قد سحب ـ بأمر مباشر من الرئيس ـ مبلغ بليون دولار من المصرف المركزى العراقى وذلك قبل بدء الغارات الأمريكية بساعات ـ فجر ١٨ مارس ٢٠٠٣ ـ وهو ما يعادل ربع ما لدى المصرف من العملات الصعبة وما تطلب لنقله ثلاث شاحنات مقطورة بجرارات!!!

بالنسبة لأناس من هذا الطراز كيف يمكن أن يكون رد

فعلهم على الغزو والتحدى (**خلاف بيانات صدام السالفة وأكاذيب سعيد الصحاف وغيرهم**)

الجواب: الفرار طبعاً.

ولنقارن مرة ثانية بين مشهد النضال المستميت لأبطال من طراز تشي جيفارا وسيلفادور الليندى ـ ماتوا والسلاح فى أيديهم دون أن يتهادنوا أو يسلموا للحظة. وبين موقف القيادة العراقية التى حرصت على استنزاف البلاد حتى آخر لحظة.

ما التطبيق العملى لكلمات الاستنفار البائسة التى أطلقها صدام حسين فى خطابيه يومى ٢٠، ٢٤ مارس ٢٠٠٣؟

الجواب هو الفرار ـ أولاً ـ والتخفى ـ ثانياً ـ ومحاولة عقد صفقات لتأمين النفس ـ ثالثاً ـ ثم التسليم إذا ما اقتضت الظروف وتأمنت السبل ـ كما حدث فى حالة طارق عزيز وسعيد الصحاف.

هذه هى الحقيقة.

أما من كان يعلم أنه لا أمل له فى الوصول إلى حل وسط مع الأمريكان، فقد اضطر إلى القتال اضطراراً، دفاعاً عن النفس ـ والنفس وحدها ـ مثلما فعل قصى وعدى صدام حسين أمام نيران الغارة الأمريكية على الموصل فى ٢٢ يوليو الماضى.

لكن ذلك ـ فى الحقيقة ـ يحمل فارقاً أخلاقياً هائلاً مع نموذج جيفارا أو الليندى. فعلى رغم أن قتال نجلى صدام حسين قد استمر لمدة ست ساعات فإنه كان ـ فى الحقيقة ـ مجرد الوقفة الأخيرة لطغاة أرادوا الدفاع عن أنفسهم وحسب، وتحت ضغط الظروف وحدها، وبفعل افتقاد منفذ آخر للنجاة.

ولقد كان فى موتهم نفسه دلالة بليغة على ما اتصفوا به من أنانية خالصة ورغبة مطلقة فى التمسك بأهداب الحياة على الرغم من كل شيء.

لقد تخلوا عن الوطن بعدما أذلوه ونهبوه، وتركوه نهباً للغزاة. لقد أهدروا كرامته ثم أهدروا استقلاله وحريته بعد ذلك.

وقد كان الموت ـ بالفعل ـ أفضل ما يمكن لهم الإقدام عليه لكنهم، مع ذلك ـ تأمل ـ تمسكوا بالحياة إلى آخر نفس.

لقد أضافوا فى حياتهم، إلى العسف والطغيان، مزيجاً من الجبن والحماقة، وعندما جاءت لحظة النهاية، فإنها كانت بالغة الوضاعة مثلما كانت حياتهم مخزية وبلا معنى.

* * *



(٢)

إرادة الديكتاتور

كان هناك منهج فكرى ـ وسياسى معين اتبعته القيادة العراقية طيلة عهد صدام حسين. وهو ممارسة الصراع على المستوى الإقليمى ـ والدولى بأسلوب «التهويش» والديماجوجيا، دون حساب لاعتبارات القوة الفعلية.

كان عراق صدام حسين يغامر دائماً بطرح واقع جديد على كافة أطراف الصراع، وكان يبنى كل حساباته على اعتبار أن هذه الأطراف جميعها سوف ترضخ ـ بالرضا أو بالغضب ـ لما تم فرضه عليها.

كان غزو الكويت ١٩٩٠ هو أحد أبرز تجليات هذه السياسة. ذلك أن صدام حسين تصور ـ أولاً ـ أن نظم الحكم فى الخليج ـ السعودية بالذات ـ سوف تنكص أمام ما قام به وتقبل الانصياع لهيمنته، ذلك أنها لن تتجاسر على طلب العون من الأجنبى.

ثم إنه قدر ـ ثانياً ـ أن دول الحواضر العربية ـ مصر وسوريا بالذات ـ لن تساعد أو تدعم أى قوة تحاول التصدى له. ثم إنه ارتأى ـ بعد ذلك كله ـ أن الأمريكان، حتى لو توافرت لديهم الرغبة فى التدخل، فإنهم ـ نظراً للاعتبارات السالفة ـ لن يجدوا أمامهم أية فرصة.

وهكذا، فقد قامت كل حسابات الحرب عام ١٩٩٠ على الاستعباد وليس المواجهة، على افتراض أحمق بالغ الهشاشة بأن الآخرين سوف يرضخون. أنهم سوف يخلون الطريق أمامه، وسوف ينحنون فى مذلة وانكسار..

وفى اللحظة التى كان على الآخرين ـ تبعاً لمصالحهم ـ أن يسلكوا طريقاً آخر، وأن يغايروا فى مواقفهم واتجاهاتهم ما تصوره صدام حسين لهم. فقد كانت مغامرته كلها ـ بالتالى ـ محكوماً عليها بالفشل التام والنهاية.

ذلك أن حسابات القوة الواقعية ـ فى الحقيقة ـ كانت كلها ضده ومن البداية.

لقد قام بقفزة حمقاء إلى الأمام، بشىء ما خارق وغير مألوف ـ غزو الكويت ليس هو المثال الوحيد ـ تصرف ما أراد أن يدخل فى روع الكل أنه أمر مفروغ منه وعليهم قبوله دون مناقشة.

وقد تصرف كالمجانين على أمل أن يوقع الرعب فى قلوب أعدائه، أو أن يثير الحيرة والتخبط.

لكن «أعداءه» عندما عزموا على التصدى له. كان الانتصار محسوماً لصالحهم، من أول لحظة، ومن قبل إطلاق أول رصاصة؛ ذلك أن فروق القوة كانت جسيمة وهائلة.

قبل ذلك بسنوات طويلة، تم ممارسة ذات المنطق، عند بدء الحرب مع إيران.

لم يكن ذلك مبنياً على تقدير قوة واقعى وإنما على ظن ساور صدام حسين بأن النظام القائم فى طهران لا يحتاج إلا إلى دفعة صغيرة ليسقط، قفزة حمقاء أخرى من عراق صدام حسين لينتهى كل شىء فى صالحه.

لكن إيران الثورة استوعبت الصدمة الأولى وتجلت لصدام حسين بكل عزم سنوات ثمانٍ استهلكت منه كل طاقة وجهد.

بعد ذلك بسنوات، وقبل الغزو الأمريكى (٢٠٠٣) تم تجاهل كل حسابات القوة الواقعية كذلك، ورفض صدام كل العروض التى وجهت إليه لترك الحكم والتخلى عنه فى سبيل تفادى الغزو والاحتلال.

كانت إرادة الديكتاتور كافية وحدها فى نظره لتحقيق كل شيء. وكانت هزائم كثيرة ومتكررة، من إيران إلى الكويت إلى غيرها، غير كافية لإقناعه بالعكس.

لكن الأمر يتطلب هزيمة نهائية فى بغداد ذاتها، حتى يتم إسدال الستار على سجل الحماقة العراقية، على سياسة التهويش وتجاهل الواقع وشروطه، وحتى ينتهى نظام حكم لا يضاهيه فى طغيانه إلا حماقته وسوء تصرفه.

* * *

(٣)

شياطين صدام حسين *

هذه لحظة مبهجة بالفعل.

إن مصرع عُدِى وقُصِى صدام حسين أمر يجب الاحتفاء به وتقديره على النحو الصحيح. ومما يؤسف له ـ بالفعل ـ أن ردود الفعل على هذا الأمر كانت دون المستوى الواجب بكثير.

لقد فاجأتنى تلك النبرة المشفقة التى سادت خطاب كثيرين حول ذلك. قال البعض: إنه أمر يثير الاشمئزاز وإنه قذارة أخلاقية من الينتاجون... إلخ. وقالت أمامى امرأة طيبة «يا عينى على صدام.. زمانه زعلان على ولاده..» وسمعت من مثقف بارز قوله إن ما جرى لأبناء صدام ما كان يعنيه ولو وصل الأمر إلى حد سحلهم فى الشوارع، بشرط أن يحدث ذلك بأيدى عراقية، أما أن يحدث بأيدى أمريكية فلا.

* نشر فى جريدة الأخبار بتاريخ ٢٠٠٣/٧/٣٠.

هذا كله كلام فارغ، والسمة الغالبة على كل ردود الفعل هذه السذاجة وعدم الخبرة بفن السياسة ولا أهدافها وأساليبها. بل عدم الحس بمعنى الحياة وقيمتها، وضرورة العقاب ولزومه.

أبناء صدام حسين طغاة لا يجب أن تأخذنا بهم رأفة ولا أن ترق منا القلوب. وقد سبق للشعب العراقى أن قام بسحل جثة نورى السعيد فى الشوارع، ويقينى أن نورى السعيد يعد بمثابة ملاك طاهر بالمقارنة بما فعله شياطين صدام حسين..

ولعل الشيء الوحيد الجديد بالاستياء ـ حقاً ـ هو أنهم ماتوا بسرعة أكثر من اللازم..

وكون ذلك حدث بأيدى أمريكية لا يغير من الأمر شيئاً؛ فقد كانت قوة الشعب العراقى ـ للأسف ـ عاجزة عن الاقتصاص لنفسها، لذا فإن مقتل الأخوين على يد الأمريكان ـ أو على يد الشيطان نفسه ـ أمر جيد جداً، ولعله أفضل ما قام به الأمريكان على الإطلاق.

ولعل أدق ما قيل فى هذا الشأن هو ما جاء على لسان كولين باول إذ قال: «نحن نتحرك قدماً بوجودهم أو من

دونه ... لم يعد بإمكانهما التأثير فى الأمور. لكن طالما بقيا هناك فى مكان ما، فإنهما كانا يخلفان شيئاً من الغموض فى الوضع .... جيد أنه جرى التخلص منهما لكننا لم نكن فى انتظار التخلص منهما».

(حواره مع جريدة الحياة اللندنية فى ٢٠٠٣/٧/٢٥).

بالفعل يكتسب مقتل الأخوين معنى رمزى وحسب لكنه معنى بالغ الأهمية والخطورة: ضرورة القصاص من القتلة والطغاة. ضرورة إذاقتهم من نفس الكأس التى أذاقوها لملايين الأبرياء.

إن موتهم ـ كذلك ـ كفيل ببعث رعشة فى أجساد كل الطغاة، مجسداً أمامهم عبرة بليغة: أن النهاية مأمونة دائماً.

لكن المدهش أننا لم نفهم ذلك، لماذا لا نفكر على هذا النحو: إذا كان العبد عاجزاً عن قتل السيد والتخلص منه، فلماذا نحرمه من إحساس الفرحة الذى يشعر به عندما يقتل السادة بعضهم البعض ـ ولأسبابهم الخاصة ـ على أمل أن يأتى ذلك اليوم الذى لا يعود فيه سادة وعبيد.

أما أن يبكى العبيد على من سامهم، وأن تسود كلامنا نبرة

أخلاقية عاطفية تافهة، فهذا أسوأ ما يمكن لنا القيام به بالفعل.. وهو دلالة انهيار أخلاقى - فعلاً - وعجز عن التفرقة بين الحق والباطل، بين الثواب والعقاب.

الرحمة الحقيقية هى إذاقة الطغاة العذاب، وأى شىء خلاف ذلك بمثابة خيانة صريحة لكل المستبعدين.

فليذهب شياطين صدام حسين إلى جحيم لا يخرجون منه أبداً، ولنبتهج نحن بذلك، وهذا أقل ما يمكن القيام به.

* * *

(٤)

محاولة لرسم ملامح الديكتاتور

هل يمكن معرفة نفسية طاغية.. هل يمكن الوصول إلى عمق قراره وفهم نوازع حركته وأسباب توجهاته.

هل يمكن كشف الغطاء عن المستور من انفعالاته وأفكاره الدفينة، هواجسه وتقلبات رأيه..

هل نستطيع الإمساك بتلابيب البنية النفسية للطغاة، بخلاف وقائع الموت والدم، التصفيات والخرائب، المذابح والآلام. بخلاف المسيرة الدموية الطويلة من كواليس السلطة المجللة بالعذاب والتعذيب... إلى المقدمة المتوجة بالوحدة والانفراد.

خلاف ذلك كله، فإن الأصول الأولى تغيب غالباً.. ولا تبين.

لا يتناقض شيء مع الطغاة قدر الصراحة والوضوح، ليس

هناك شيء على نقيض من نظم الطغيان ـ خلاف الحرية ـ مثل طلاقة القول والبوح بما في النفس من آلام ومخاوف، من هواجس ونوازع.

لذا فإن التحليل النفسي متعذر إلى درجة يرثى لها فيما يخص الطغاة وأذنابهم. ولا نملك إلا تخطيطات عامة عريضة دون سواها. لا نملك إلا الإشارة إلى الإطار وحده دون القدرة على رسم التفاصيل.

وإذا أردنا لمس هذا الإطار أو التكهن بشأنه، وإذا اتخذنا حالة العراق نموذجاً لذلك. فإنه مما هو جدير بالانتباه تلك اللمحات الخاطفة التي تعبر سريعاً وسط كلام كثير كثير عن السياسة والصراعات الدولية ـ عن أمور تبدو لأول وهلة غير ذات أهمية. لكنها مع ذلك يمكن أن تشكل إشارات خفيفة بعيدة باهتة عن أمور لا يمكن الاستدلال عليها بشكل قطعي مباشر.

هناك إشارة أولى نجدها في تقرير مجلة النيوزويك الصادرة في ٥ أغسطس ٢٠٠٣ بعنوان «انظر كيف تخفيا هاربين» **(صدر ذلك العدد بعد مقتل الأخوين عدي وقصي صدام حسين)** تقول: «... ويقال أن عدي قتل ١٧ من حراسه حتى لا يخونوه، وأنه أعاد تصنيع شاحنة نفايات

وملأها بالجواهر للهرب بها، وأنه أوصى بأن يحرق أسطوله الواسع من السيارات الباذخة فى مقبرة إسلامية. وفى إبريل وبينما كانت بغداد تسقط أمام الأمريكيين، استدعى عدى أمه؛ كان يود رؤيتها مرة أخيرة، ثم اختفى، وعلى مدى أكثر من ثلاثة أشهر كان مكانه، ومكان أخيه وأبيه، موضع مطاردة مكثفة من قبل القوات الأمريكية، ومن قبل مجموعة سرية تعرف باسم القوة ٢٠ بالتحديد..»

(فلنلاحظ عرضية الإشارة إلى موضوع الأم).

هناك إشارة ثانية نجدها متناثرة على لسان كثيرين تكلموا فى الصحف أو التليفزيون ممن أطلق عليهم «أصدقاء» عدى فى الطفولة أو السهرات الخاصة - من أن عدى كان «مرتبطاً» بأمه.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما نعلمه من أن عدى صدام حسين كان قتل أثناء إحدى الحفلات الرسمية ـ الرجل الذى عده المسئول عن معرفة صدام حسين بسميرة الشهبندر زوجة أبيه الثانية (حتى وإن كان من غير المؤكد أن عدى كان «يقصد» قتله. وأن «القتل» حدث عرضاً ـ فى الغالب ـ ولسبب عابر لحظى.. إلخ) تكاملت لدينا ثلاث إشارات هامشية وعابرة ـ ولم تذكر أياً منها لغرض الإدلاء بها فى ذاتها وإنما ضمن

سياق أشمل وكنوع من السرد التفصيلى ـ لكنها مع ذلك قد تشكل إيماءات مهمة إلى شىء ما أكثر أهمية. شىء ما يتعلق بنفسية الطاغية: علاقته بأمه!!

هل يمكن أن يشعر الطاغية بالحنو والعطف على الأم، بالحب لها.

فى أجواء دامية مخنوقة بالمؤامرات مترعة بالدسائس والمكائد، بالموت المحلق فوق الرءوس والطغيان مطلق العنان، فى ذلك الجو الملبد بالكراهية والغضب، هل يمكن لمشاعر «تقليدية» كمشاعر حب الابن تجاه أمه أن توجد.

أية مشاعر كان يحملها عدى لأمه، وكيف كانت نظرة الأم لإبنها، عدى السفاح القاتل عاشق السلطة والتعذيب وهتك الأعراض.... إلخ. كيف كان موقفه من أمه، وما تفسير احترامه وحبه لها ـ كما يبين من الإشارات الواهنة الواردة سلفاً ـ وكيف كان موقف أمه من كل التجاوزات والانحرافات التى تلحق به.

ونحن نعلم ـ بالقطع ـ أن مثل هذه العلاقات فى مثل هذه الأجواء لا يجوز قياسها على ما نعرفه عن العلاقات الطبيعية فى ظروف طبيعية. الشذوذ هو القاعدة فى مثل هذه

الأحوال، الخروج على المألوف والقاعدة هو العادى والمألوف، هو وحده المنطقى دون سواه.

لذا فإننا لا نستغرب أن تشيع مشاعر الكراهية والحقد، التطرف والانفعال بين الأب (صدام) والابن (عدى)، ولا نستبعد أية مشاعر مماثلة فى نطاق عائلة تماثل عصابة مجرمين أكثر مما تشابه الصور التقليدية للأسر العربية.

لذا فإن بزوغ علامات على خلاف ذلك، على وجود نوع ما من العاطفة فى هذه الدراما الدموية الشاملة أمر يثير الاستغراب إلى حد ما ويشكل علامات استفهام مستغربة، علامات استفهام لا نملك لها إجابة لأننا لا نملك معلومات.

(ولعلنا نضيف هنا إشارتين خاطفتين تؤكدان ذات المعنى: قول رغد صدام حسين عن أبيها ـ أنها تشتاق إليه، وأنه كان مثالاً للأب العطوف الحنون.. إلخ، وعن عائلتها أنها «نموذجية».

وكذا قول «جدة الديكتاتور الأوغندى عيد أمين عنه ـ «حفيدها» ـ عند موته «.. ظللت أصلى أن يعود يوماً ويصبح رئيساً من جديد. أنا أفتقده «(الجدة مارى كميمى تبلغ من العمر ثمانين عاماً

ونشر قولها ضمن تحقيق صحفى عن وفاة الديكتاتور ـ الحياة اللندنية ١٧/٨/٢٠٠٣) .

وهو ما يطرح علينا السؤال ذاته من جديد:

هلى يمكن للطاغية أن يشعر بالحنو ـ العطف ـ بالرحمة ـ أو.. الحب؟!

هذا أمر يحتاج إلى دراسات موسعة وحالات تطبيقية كثيرة. وهو ما يخرج عن نطاق ما أردنا الاقتصار عليه فى هذه الدراسة الموجزة ـ الإشارة وحسب إلى الموضوع دون خوض تفصيلى أو استقصاء شامل) .

والأمر كله ـ ما يتوافر لدينا ـ لا يعدو ـ كما سلف وأشرنا ـ مجرد إشارات سريعة لا تكفى إلا لرسم الإطار دون الصورة. الهيكل دون المضمون.

هذا هو أقصى ما يمكن الوصول إليه فى رسم ملامح الديكتاتور لا نملك أكثر من ذلك.

* * *

(٥)

كيف يعيش صدام حسين؟! *

كيف يعيش صدام حسين. فى ظل الحصار والتخفى. التعقب والمطاردة.

الرجل ـ كما تفيد المعلومات ـ يغير مكان إقامته كل أربع ساعات. وهناك مركز تنسيق عمليات فى الجيش الأمريكى مكرس لمطاردته. وقد اقتحمت القوات الأمريكية كل الأماكن التى يشتبه تواجده فيها. وفى ثلاث حالات تم الإعلان أن صدام كان «هنا» بالفعل من قبل، وأنه غادر فى اللحظة الأخيرة.

(يعيد ذلك إلى الذاكرة ما صار معروفاً من أن الغارة الأمريكية على حى المنصور صباح يوم ٧

* نشر فى جريدة الأخبار بتاريخ ٢٠/٨/٢٠٠٣.

إبريل والتى ضربت منزلاً أشتبه بتواجد صدام وأركان حكمه فيه والذى ساد الظن بعدها لأيام بأنه من الممكن أن يكون صدام قد قتل فيه فعلاً... إلخ. تلك الغارة نجا منها صدام بفارق دقائق قليلة حيث غادر ذلك المنزل قبلها مباشرة).

وهكذا.. فإن دائرة الحصار مطبقة ورهيبة. ومهما كان الحظ معه وفى صفه، فإن السؤال المعلق فوق رأسه سوف يظل قائماً: إلى متى؟

كل لحظة يكسبها صدام حسين لها قيمة غالية بالنسبة إليه بالتأكيد. ها هى لحظة أخرى قد كسبها وهو على قيد الحياة، وهو لم يتعرض بعد لمهانة التوقيف والاعتقال، أو خطر مجابهة الموت... إلخ.

لكن كل لحظة تمر تقربه كذلك من النهاية، حيث إنه لا يمكن أن يظل متخفياً إلى الأبد، لا يمكن أن يظل مطارداً إلى الأبد. وإذا ما استبعدنا احتمال الوصول إلى صفقة مع الأمريكان، وهو الاحتمال الذى يبدو مستبعداً إلى حد كبير، فإن النهاية محسومة بالفعل، بل إنه يمكن القطع بأن صدام قد انتهى فعلاً، وإن كان ما يعيشه من ٩ إبريل الماضى وحتى الآن هو عبارة عن استطراد بائس لحياة ديكتاتور.

نهاية تتحرك إلى الأمام بقوة الدفع الذاتى دون أن يقلل ذلك من حقيقة أنها نهاية بالفعل.

* * *

ما هو الجو العام الذى يحيط بصدام حسين والحال كذلك ما طعم الأيام؟

التوجس.. الخوف.. الريبة.. والأهم فى ذلك كله: الوشاية والغدر.

الغدر: سمة كل شىء، الطابع الذى يطبع كل ما يحيط به. صدام حسين يجنى ثمار ما زرع. قهر نظامه، بطش عهده، سواد أيامه، كل ذلك قد انقلب عليه.

لقد عاش العراقيون فى زمنه عقوداً من الدسائس والخيانات. والآن على كل ذلك أن يرتد إليه وينفجر فى وجهه. هو ذاته. هو الذى صنع كل هذا الجبن والتخاذل. هو الذى خلق كل هذا الخوف. الآن عليه أن يلقى مصيره.

فضلاً عن حديث الخيانة ـ وكيف سلمت بغداد فى ٩ أبريل. وقد راجت مقولات كثيرة عن صفقة أبرمت مع الأمريكان... قال البعض: إنها مع صدام شخصياً وقال آخرون إنها مع رجال محيطون به دون علمه.

وقد رددت بعض الصحف أسماء ورتب ومبالغ تم دفعها وخيانات تم الاتفاق عليها. الأمر الذى أشارت إليه كذلك ابنة صدام «رغد» إذ قالت: «الناس الذين وضع (صدام) ثقته بهم فى شكل مطلق واعتبرهم يده اليمنى، فهمنا أن الغدر الرئيسى كان عن طريقهم».

(مقابلتها مع قناة العربية فى ١/٨/٢٠٠٣).

بعد بغداد، تم القضاء على عدى وقصى صدام حسين بوشاية من نواف الزيدان ـ الرجل الذى كان مقرباً من الأسرة الحاكمة وعلى صلة بها ـ من نوع ما.

الغدر مرة أخرى...

هذا الغدر لم يتوقف عن ملاحقة صدام حسين من يوم سقوط بغداد حتى هذه اللحظة. وسيظل يلاحقه إلى أن يقضى عليه نهائياً ـ كشخص وإنسان، بعد أن قضى على نظامه ودولته.

هذا الغدر نفسه ـ يجب ألا ننسى ـ هو من صنعه. هو نتاج عصره.. هو إنجازه الشخصى والعام، فى مجال العلاقات العراقية مع الداخل والخارج. هذا الغدر هو الذى

سوف يذبحه فى النهاية (**قال الأمريكان: إنه بعد التخلص من عدى وقصى زادت نسبة الوشايات الراغبة فى التمثل بنواف الزيدان والحصول على المكافآت الأمريكية**).

* * *

ولنتصور الآن ذلك الشيخ المطارد - ٦٧ سنة - ذلك الزعيم. القائد الضرورة... إلخ، الذى اعتاد عيشة الأباطرة وبذخ الملوك كيف يعيش هكذا مطارداً متخفياً يخشى كل عين وكل نفس. يخشى أن يوقع به أحقر إنسان ما كان ليوليه نظره فى السابق، يخشى أن يطيح بحياته كلها مجرد جندى أمريكى بسيط. مجرد جندى.

ولقد قال الأمريكان كذلك أنهم سيقتلون صدام إذا شكلت مقاومته - عند القبض عليه - خطراً على حياة جندى واحد.. أى عار!!.. حياة أعتى ديكتاتور عربى تقل فى قيمتها - فى نظر الأمريكان - عن حياة جندى أمريكى واحد.. أى مذلة!!

كيف يشعر صدام حسين والحال كذلك؟! ثم كيف حاله عندما عرضت صور أبنائه عراة، مدماة أجسادهم بطلق النار

والشظايا. كيف تأمل صورهم كيف كان شعوره ؟! هل بكاهم؟! هل بكى نفسه هل أحس بالموت **المحوم** وفوق رأسه. كان من غرض الأمريكان إيصال رسالة إليه بالتأكيد. وقد تلقاها من دون شك.

وقد راجت أقوال بأنه يربط حول جسده حزاماً ناسفاً موصولاً بجهازى تفجير يقبض عليهما بيديه طوال الوقت.. عازماً على تمزيق نفسه أشلاء إذا ما دعت الحاجة، حتى لا يصل إليه الأمريكان حياً، ولا يعرضون جثته ميتاً.

هكذا يعيش صدام حسين!!

حصار حصار حصار، ودم فى كل مكان ونهاية محتومة، ومذلة بلا نظير.

إنه يعيش فى ظل النهاية... والرصاصة التى سوف تستقر فى رأسه قد انطلقت بالفعل، ونحن الآن فى المسافة الفاصلة ما بين لحظة التصويب والإصابة ـ لا أكثر ولا أقل.

* * *

القسم الثانى

صاعدًا من قبو

* هذا الكتاب أحد أحب ما كتبت إلى نفسى، ليس فقط لموضوعه، وإنما لأن معظمه ـ القسم الثانى بأكمله ـ تمت كتابته دفعة واحدة فى فترة لا تتجاوز أياماً قليلة.. هى التى تلت إعلان القبض على الرئيس صدام حسين بالشكل الذى تم عليه.
كانت كل السطور التالية تخرج هكذا دفعة واحدة، تنساب كلها ـ كأنها استتباع منطقى ـ من الصورة المتخيلة التى أسرت لبى: صورة صدام حسين «صاعداً من قبو».
كان لذلك مفعول السحر، وكان لكل ما يتفرع عنه من تأملات ورؤى أن يتجسد فى شكل السطور التالية.
وهذه التجربة ـ دفقة السحرة مرة واحدة ـ لا يعرف حلاوتها إلا من مر بها وعاناها.



(١)

لماذا لم ينتحر؟!

هذا حقاً هو السؤال. لماذا لم ينتحر صدام حسين؟! لماذا قبل مهانة الأسر. لماذا استسلم دون طلقة رصاص واحدة؟!

ريكاردو سانشيز (قائد القوات الأمريكية فى العراق) قال: إنه كان متعاوناً وإنه استسلم لأقداره. عدنان الباجه جى قال عنه: إنه متعب لكنه غير نادم.

لكن السلاح كان إلى جواره فلماذا لم يفعلها؟!

سوف نحاول الإجابة على هذا السؤال عن طريق معقد وملتوٍ بعض الشيء. لكنه وحده القادر ـ فى رأينا ـ على أن يقدم تفسيراً للأمر.

شاعت كثيراً المقارنة بين الفاشية الأوروبية ونظام البعث فى العراق وغيره، والشبه وارد وصحيح، لكن الفروق كثيرة

كذلك.. ولعل أحد أهم الفروق وأكثرها دلالة ـ مهما بدا فى اللحظة الأولى تفصيلياً وبسيطاً ـ أن هتلر ـ مثلاً ـ مات منتحراً ولم يسلم نفسه للقوات السوفيتية التى غزت قلب برلين. بل لقد تمّ إحراق جثته لإخفاء معالمها تماماً وضمان عدم الوصول إليه حياً ولا ميتاً ـ بقدر الإمكان.

صدام حسين لم يفعل ذلك. لماذا؟ ربما تقودنا هذه المفارقة ـ فعلاً ـ إلى بيان كافة أوجه الفروق فى الشبه بين الفاشية الأوروبية ونظيرتها العربية.

من وجهة نظر البورجوايزات الأوروبية ـ فى بداية العقد الرابع من القرن العشرين ـ فقد كانت الظروف الاجتماعية التى تمر بها أوروبا وقتها تتطلب التصدى بحزم وقسوة مع حالة صعود بروليتارى ـ شعبى عارم وخطير. خاصة بعد احتدام التناقضات الطبقية وانتصار ثورة أكتوبر فى روسيا ـ الأمر الذى كان يهدد بالإطاحة بنظام الإنتاج الرأسمالى وسيادة الطبقة البورجوازية على الحكم.

فى مواجهة ذلك كله كانت الفاشية هى الحل. كانت الفاشية هى الجهاز العسكرى الأكثر تنظيماً الذى يخدم مصالح اليمين الرجعى فى أوروبا ـ يحافظ عليها ويوسعها.

وقد كان التنظيم هنا ضرورة. ضرورة حياة أو موت فى الصراع مع الطبقة العاملة الأوروبية لمنع صعودها إلى السلطة واستحواذها عليها.

كانت ضرورة التنظيم هذه هى الدافع إلى ضرورة الارتكاز على أية بنية نظرية ـ ولو بالكذب والخداع ـ لتبرير عمليات التوسع الإمبريالية والقمع.

كان الفكر فى خدمة القمع. وكان القمع فى خدمة النظام. وكان النظام هو سيادة الإمبريالية الألمانية باسم مشروع الرايخ الثالث ـ الفتح والتوسع وسيادة الجنس الآرى.... إلخ.

لذا يمكن أن نلحظ أن الفاشية فى الغرب كانت تمد جذورها ـ رغم كل شيء ومهما كانت درجة وحشيتها ـ فى تراث هائل من الفلسفة الألمانية والفكر الاجتماعى الألمانى، على مدى قرن قبلها على الأقل.

وحتى لو كان ذلك الفكر هو تراث عصر انحطاط الرأسمالية الأوروبية. أو أنه تم فهمه وتداوله على نحو مشوه يخدم أغراض الإمبريالية الألمانية على حساب حقيقته... إلخ. فالمهم أن الفاشية الألمانية اصطنعت لنفسها صلة نسب بتراث ثقافى معين يجمع ـ ولو بشكل تلفيقى مجتزئ وخارج

عن سـيـاقـه ـ بين هيـجل وشـوبـنهـاور، نيـتـشـه وجـوبينو، كارلايل، وفاجنر.. إلخ.

لذا يمكن أن نلحظ أن الفاشية فى الغرب كات تمد جذورها ـ رغم كل شيء ومهما كانت درجة وحشيتها ـ فى تراث هائل من الفلسفة الألمانية والفكر الاجتماعى الألمانى، على مدى قرن قبلها على الأقل.

على العكس تمـاماً ـ فلنلاحظ الفـوارق ـ فـإن الفـاشـيـة العربية تمد جذورها فى التخلف والتخلف وحده. تستمد قوتها من عصور متلاطمة من الظلمات أناخت بثقلها على الضمير والعقل العربى طوال قرون وقرون.

الفاشية العربية ابنة تخلف طويل المدى وليست مجرد نتيجة جانبية لعصر من الانحطاط مؤقت كما فى الحالة الأوروبية.

لذا فإنها قادرة على أن ترتد بالزمن والتاريخ إلى فظائع القرون الوسطى فى لحظات.

(تحت ظل البورجوازيات العربية أطلت الطائفية برأسها من جديد وسادت النزاعات العرقية والإثنية والمذهبية.) .

قادرة على إشاعة كل أمراض التخلف والانحطاط من جهل وكذب ونفاق وغدر وخيانة... إلخ.

(العجز عن الديمقراطية هنا هو عجز بنيوى فى صلب المجتمع نفسه، وليس فقط نتيجة احتكار البورجوازيات الفاشية للحكم. وهو سبب صعودها وتمكنها فضلاً عن كونه إنجازها الرئيسى فى ذات الوقت) .

قادرة على أن تنشئ أكبر أجهزة الرعب البوليسى وأفظع تشكيلة من المقابر الجماعية والتصفيات والإبادة.

(لعل الحرب الأهلية اللبنانية ـ مثلاً ـ أحد أبلغ النماذج على ما تصل إليه الفاشيات الطائفية العسكرية فى التعامل مع فكرة الوطن والمواطنة، الأمة والدولة...إلخ) .

الأكثر عمقاً من ذلك، الأكثر اتصالاً بالجذور، أن تفهم حقيقة أن الفاشية الأوروبية كانت تحمل تصوراً معيناً. مشروعاً معيناً، فى عالمنا العربى. الفاشيات العربية لا تحمل أى مشروع ولا تحمل أى فكر، والأهم من ذلك أنها لا تعبر عن أية طبقة.

لقد كانت الطبقة العاملة العربية مضروبة أصلاً ومصابة بالهزال منذ البداية. كان التطور الاجتماعى ـ الطبقى العربى يجعلها مستبعدة من لعبة الصراع على السلطة أو العمل على الوصول إليها. وذلك منذ اللحظة الأولى للصراع.

وباستثناء بضع مظاهرات مهنية وكذلك بضعة أحزاب مثقفين يسارية فقد كان المردود السياسى والثقافى للطبقة العاملة هزيلاً ومتهافتاً.

وكان التطور الطبقى يقود إلى صراع بين البورجوازية الصغيرة العربية والبورجوازية الكبيرة (**صـــراع هزلى، بديل عن الصراع الحقيقى الذى كان لابد أن يدار بين الطبقة العاملة والبورجوازية العربية فى مجملها، بكافة شرائحها وأقسامها.**) .

وكانت البورجوازية الصغيرة تستولى على الحكم فى معظم البلدان العربية لتواجه مأزقها التاريخى. عدم قدرتها على إيجاد نمط إنتاج تحمل مسئوليته وتتقدم به إلى الأمام. ومن ثم عودتها إلى إعادة إنتاج سلطة الرأسمال الكبير من جديد. وتحول طلائع حركتها السياسية ممن قاموا بإزاحة البورجوازية الكبيرة ورموزها إلى «طبقة جديدة» إلى تكرار جديد للوجوه القديمة.

كان المجتمع الفاسد يعيد إنتاج نفسه. وكانت نظم الحكم «الثورية» تتحول إلى فاشية. وكانت آمال القطاع العام والاشتراكية تتحول إلى إعادة بعث للرأسمالية من جديد.

وكان القمع يقبع فى مكانه يضرب بيد من حديد باسم أكاذيب ولى زمنها وفى خدمة أعداء حاربهم فى الماضى.... إلخ.

كانت الفاشية العربية بذلك مجرد جهاز قمع يتربع فوق مجتمع متعفن يعيد إنتاج فساده القديم ولا يملك مخارج ولا منافذ للتغيير.

لذا فإنه يمكن أن نفهم كيف أن الفاشية العربية تعتمد على حالة من اليأس والسأم. وتشيع حالة من الخمود والأسى. على حين أن الفاشية الأوروبية كانت تعتمد على حالة انفعال غريزى مكرس فى خدمة حركية مستمرة. الشبه الوحيد هو معسكرات الاعتقال ـ المقابر الجماعية ـ الغزو ـ العنصرية ـ الحماقة المفرطة... إلخ لكن خلاف ذلك فإن أساس التطور الاجتماعى مختلف والنفسية الاجتماعية التى تنتجها كل حالة مختلفة.

لقد كان هتلر ـ مهما قلنا عنه ـ صاحب مشروع، أما صدام حسين فقد كان مفلساً من البداية.

كان هتلر ـ رغم كل شيء ـ لا يتراجع خطوة واحدة عن أرض كسبها ولو كلفه ذلك الدم والموت.

أما صدام حسين فكان يمارس حماقات مجانية دون مكسب أو نتيجة. يقاتل إيران ثم يسلم لها بما تريد. يغزو الكويت ثم يعتذر لها. ينادى بالمقاومة ثم يهرب.

كان هتلر ابن مشروع معين وفى خدمة مشروع معين. وقد كانت معسكرات الاعتقال والحرب أحد أبرز وجوه ذلك المشروع بالفعل. لكنه كان هناك مشروع ما على أية حال. مشروع اكتسب قدراً هائلاً من الدموية لكنه أراد تحقيق هدف ما. **(مهما قلنا إنه هدف ظالم أو عدوانى. خيالى وغير قابل للتحقيق... إلخ).**

أما صدام حسين فلم يكن صاحب مشاريع ولم يخدم أية أفكار.

وقد كانت معسكرات الاعتقال والحرب فى عهده مجرد أدوات لخدمة السلطة وحسب، السلطة المعلقة فى الفراغ دون طبقة تدافع عنها. دون مشروع تحمله، دون أمل تسعى إلى تحقيقه.

لذا فقد كان طبيعياً أن ينتحر هتلر، كما كان «طبيعياً» كذلك

أن يهـرب صـدام، وإن اسـتـسلم هكذا، دون أن يفكر فى المقاومة، ودون أن يخطر فى باله أن ينتحر.

لقد أراد هتلر تحقيق شيء ما للأمة الألمانية... لكن صدام حسين كان مجرد عابث يلهو (حتى ولو كلف ذلك الأمة ما لا يمكن تعويضه ولا تصور فداحته ـ ثلاث حروب فى الخليج ـ حصار لمدة ١٢ سنة ـ وديكتاتورية يزيد عمرها على ثلث قرن).

لذا فإن صاحب المشروع ينتحر فى النهاية (**حتى ولو كان مشروعاً إجرامياً**).

أما العابث (**حتى ولو كان مجرماً هو الآخر**) فإنه يتمسك بالحياة إلى آخر نفس. ولعله يمنى النفس بأوهام كاذبة. كأن يتصور أنه سوف يحرج خصومه. أنه سوف يقدم صوره للصمود أمام أعدائه. أنه سوف يستنفر الأمة للدفاع عنه..

ربما تجول مثل هذه الأفكار بذهن صدام حسين. لكنه واهم بالتأكيد إذا فكر على هذا النحو. إنه بذلك يستمر فى عبثه القديم. لكن أفضل ما فى الأمر أن عبثه هذه المرة لن يدفع ثمنه أحد سواه

ونحن فى انتظار الأنباء عن حاله تحت الأسر ولعلنا سوف نفهم منها الكثير، لا عن السياسة ولا عن الأحداث، وإنما عن نفسية الطغاة وأفكارهم، عن تفاهتهم وعبثهم وأوهامهم التى هى ـ بالتأكيد ـ بلا نظير.

* * *

(٢)

نورمبرج عربية

في الحقيقة، أنا لا أعرف الأسباب التي تجعل الأمريكان بالغي التكتم في كل ما يخص المعلومات المتعلقة بمسئولي النظام العراقي السابق.

لقد سقط أركان النظام في معظمهم ـ وآخرهم صدام حسين ـ في قبضة الأمريكان. ومع ذلك فليست هناك أية معلومات واضحة ودقيقة يتم الإعلان عنها.

لا نعرف شيئاً عما إذا كانت أجريت تحقيقات مع طارق عزيز، طه ياسين رمضان، على حسن المجيد، هدى عماش وغيرهم. لا نعرف ماذا قالوا، ماذا فعلوا. لا نعرف أين هم أصلاً، وكيف يعيشون، وما مصيرهم..

ولا نعرف كذلك أين كان أركان النظام مختفين طوال الفترة من سقوط بغداد حتى تاريخ القبض على كل منهم؟!

أين كان صدام حسين حتى ١٣/ ١٢ الماضى؟! كيف كان يعيش؟! مَنْ كان فى خدمته؟!.. إلخ، لا نعرف عن ذلك أى شىء.

مع أن ذلك كفيل بالاطلاع على كثير من المسالك السرية للأنفاق ـ للأقبية ـ لوسائل نقل المال والسلاح والطعام والرسائل والتعليمات... إلخ.

يلحق بذلك تلك الألغاز المتعلقة بالمقاومة العراقية. وما إذا كانت مرتبطة بصدام حسين من عدمه. وإذا كانت مرتبطة فهل هو ارتباط رمزى أدبى وحسب. أم أنه ارتباط مالى ـ تنظيمى..

(وهى الألغاز التى عادت تثار بشدة بعد إلقاء القبض على صدام. وراح الكل يترقب مدى زيادة أو نقِصان وتأثر عمليات المقاومة من بعده).

الأمر الذى جعل ـ فى مجمله ـ الساحة العراقية كلها مثار فوضى وجدل لا يعتمد على توافر المعلومات بقدر ما يعتمد على الظن والتخمين. فليس هناك أحد يعرف أى شىء على وجه الدقة والقطع. وإنما كلها اجتهادات قد تصيب وقد لا تصيب. والعيب هنا لا يقع على عاتق المجتهد بالقطع وإنما

تتحمل وزره سلطة الاحتلال دون سواها والسياسة الأمريكية في مجملها. والتي تتعامل على الساحة العراقية وفيها بدرجة من الكتمان مثيرة للانتباه والضجر.

هذه الخيوط والخطوط مفتوحة كلها على بعضها البعض وموصولة بشدة وعمق. وإذا تذرّع الأمريكان بأسباب أمنية في عدم الكشف عنها. فالأسباب السياسية نفسها تدعو إلى نوع من السماح ولو قليلاً.

فإذا كان الأمريكان يزعمون أنهم يريدون جلب الديمقراطية للعراق. وإذا كان من مصلحتنا نحن ـ في ذات الوقت ـ أن يتحقق. فإنه يجدر علينا جميعاً أن نحاول تخفيف كثافة الصمت والظلام الذي يخفي كثيراً مما يحدث بالعراق.

إن من مصلحة الأمريكان ـ في مطلق الأحوال وسواء تذرعوا بالديمقراطية أو بالنفط ـ ومن مصلحتنا كذلك قيام نوع من نورمبرج عربية. محاكمة لمجرمي الحرب العراقيين.. وذلك لا يتوفر إلا بقدر هائل من الصراحة والقدرة على مواجهة النفس، بقدر هائل من الثقة في أن الذات العربية تملك وتستطيع أن تواجه آلامها وأوجه الضعف والقصور فيها دون خوف أو عقد نقص.

إن علينا أن نسأل أنفسنا كيف استطاع صدام حسين أن يفعل ذلك. كيف استطاع رجل واحد أن يحقق كل هذه الكوارث.

هذا السؤال يرادف السؤال عن الشروط الغائبة للديمقراطية فى العالم العربى. لقد استطاع أن يتحكم لأنه وجد الفرصة سانحة ووجد الكل بين خاضع وتابع وخنوع.

نورمبرج عربية وحدها هى القادرة على دعم الديمقراطية. هى القادرة على تحقيق مثال عربى قادر وفعال.

أما التعامل مع الأمر بشكل أمنى محصن. كما هو حاصل حالياً. فإن نتيجته تكون سلبية بالكامل.

فى مثل هذه الأجواء تزدهر الشائعات والأكاذيب، بل والخرافات كذلك. كأن يقول البعض: إن صدام وعدى وقصى لم يموتوا فعلاً وإنما هم أحياء وينتظرون عودتهم للسلطة والحكم. أو أن يتصور كثيرون أن الأمر كله خدعة متفق عليها بين صدام والأمريكان.. إلى آخره.

(هناك فى الحقيقة ألغاز كثيرة تشتمل عليها الحالة العراقية. أحد أكبرها وأكثرها غرابة ـ

بالقطع ـ سقوط بغداد فى ٩ إبريل الماضى على النحو الذى تم عليه. القبض على صدام بهذه الطريقة كذلك أحد الغرائب الكثيرة. السياق العام للأمور ذاتها.. إلخ. على سبيل المثال فقد وجد مع الرئيس ثلاثة أرباع مليون دولار عند القبض عليه ومن قبلها كانت هناك ملايين كذلك إلى جوار عدى وقصى. وسميرة الشهبندر زوجة الرئيس أفادت فى حديثها لصحيفة الصنداى تايمز أنه سلمها حقيبة تحتوى على خمسة ملايين دولار نقداً فى لقائه معها على الحدود السورية بعد سقوط بغداد باثنى عشر يوماً وكذا صندوق فيه سبائك ذهبية تزن عشرة كيلو جرامات وتقدر بنحو ٨٥ ألف جنيه استرلينى... إلخ، وأنه كان يتصل بها أسبوعياً ويراسلها كذلك.... إلخ. كيف حدث كل هذا؟! كيف كان يدور؟!

خروج عائلة الرئيس. الكلام الكثير حول دور سوريا وروسيا فى الأمر، إطلاق الصحاف.... إلخ.

ذلك كله يسمح ـ بالفعل ـ بقدر هائل من الارتياب فى حقيقة كل ما يجرى.

لكن السبب الحقيقى لذلك أن هذه ربما تكون هى المرة الأولى فى التاريخ التى تجرى فيها حرب على هذا النطاق، تحول استراتيجى على هذا القدر والمستوى (تحول أمريكا إلى إمبراطورية والشرق الأوسط إلى مستعمرة) دون أية معلومات واضحة ومع كل هذا القدر من الغموض والإشاعات والغرائب. ومن الغريب أن ذلك يحدث فى عصر العولمة وثورة الاتصالات..)

حتى نقطع الطريق على كل هذه الأفكار ـ والأفكار ممهدات للفعل والفعل الذى يتأسس على مثل هذه الأفكار سوف يعيد إنتاج صدام حسين من جديد لا محالة.

حتى نمنع حدوث ذلك علينا العمل على تحقيق نورمبرج عربية لمحاكمة مجرمى الحرب العراقيين ـ لمحاكمة الأفكار والرؤى ـ المذاهب والتيارات ـ التنظيمات والنظم التى حكمت عالمنا العربى منذ ثلث قرن على الأقل وحتى الآن.. على أن نكون مستعدين لأن نرى فى قفص الاتهام ليس فقط صدام حسين وإنما أنفسنا معه. أن نرى تلك العقلية العربية الأفاقة والمتقلبة. تلك التى هتفت له منذ شهور «بالروح بالدم نفديك يا.....» وراحت تلعنه بعدها، أولئك الذين كانوا يرون

فيه فارس الأمة العربية وحامى «البوابة الشرقية» ثم راحوا يضربون صورته بالأحذية.

نورمبرج عربية لتطهير أنفسنا من صدام وأشباهه، النفسية التى قادت إليه والفكر، قبل أن تكون محاكمة لصدام ذاته ورموز حكمه.

نورمبرج عربية وحدها هى القادرة على كشف كل شىء. ليس فقط لتقديم وثائق اتهام وإنما لتحديد وسيلة حياة، لأنفسنا وللعالم. أن نحيا فى ظل الأكاذيب فى ظل العتمة والكتمان. أم نحيا فى الحقيقة والعلانية.

هذا هو الخيار المطروح علينا والمحاكمة وحدها ـ على الشكل الذى نتصوره ونرتضيه ـ هى طريقه الوحيد.

ربما يقول البعض: إن الصحف تفيض كل يوم فيما يمكن أن يعد وثائق اتهام ومحاكمة بالفعل للنظام ورموزه.

لكن الكلام شىء ووقوف المجرمين فى قفص الاتهام شىء آخر. نحن نريد للعقل العربى أن يرى الطغاة وهم فى قفص الاتهام. أن يمعن فيهم النظر وأن تسكن صورتهم هذه، ضميره وخياله.

هذه الصدمة الوجدانية أهم من أى كلام. وهى خطوة

مهمة على طريق الديمقراطية بالفعل.. الديمقراطية التى تطلق رسالتها الأولى إلى العقل العربى بمجرد تحقق شكلها الهيكلى العام: قاعة محاكمة وقفص اتهام ومجرمى حرب ما كان أحد يتصور أن يرفع إليهم عيناً أو لساناً.

فضلاً عن أن المحاكمة نفسها مطلوبة لذاتها قبل أى شيء يمكن أن يثار فيها. فإن هناك سبباً إضافياً يدعونا إلى عدم الاعتداد كثيراً بما ينشر فى الصحف، ذلك أنه يهدف فى مجمله إلى تملق القارئ وإثارته وضمان شراكته فى نظرة واحدة إلى «الطاغية». نظرة تتشفى أو تتسلى أو تعبر على الأمر بخفة... إلخ. وليس هذا ما نريده. وإنما نحن نريد مبضع جراح يغوص إلى عمق الجرح العربى والعار العربى، جرح التخلف وعار الديكتاتورية، ليداويه ولو بحرق النار.

لذا فإن نورمبرج عربية أكثر من ضرورة الآن إنها لزوم حياة، وطريق إلى المستقبل.

من دونها فإن صدام حسين سوف يعبر فى التاريخ هكذا، دون أن يترك أثراً. ودون أن نتعلم منه شيئاً بالغ الأهمية: ضرورة ألا يتكرر.

وبذلك فإنه سوف يتكرر وسوف تعود المذابح والمقابر

الجماعية والمغامرات الهوجاء من جديد.

وحدها المحاكمة سوف تنقذ العراق وسوف تنقذنا جميعاً، فهل نقوم بها.



(٣)

من يحاكم صدام

هل يمكن محاكمة صدام حسين أمام محكمة عراقية وقضاة عراقيين.

نظرياً ليس هناك مانع، على العكس هذا هو مطلب كثيرين.

سياسياً: يمكن التنسيق مع الأمريكان فى شأنه. وربما يسعد كثيرون بهذه الخطوة إذ تؤكد لهم أن الشأن العراقى شأن وطنى خاص بالعراقيين، قومى خاص بالعرب، وأن الشعب يسترد زمام أموره ويحاكم ويصدر الأحكام... إلخ.

نحن ما زلنا الآن فى البداية، وكل ما أثير حول هذه النقطة مجرد تساؤلات من جهة واجتهادات من جهة أخرى.

لكننا من الآن نعتقد بشكل جازم ـ واقعياً هذه المرة وليس نظرياً ولا فقهياً ـ أن ذلك مستحيل.

لا نعتقد أن هناك فى الشعب العراقى كله من يستطيع أن يقف أمام صدام حسين ويحاكمه.

ليس هناك أحد سواء من الشعب بكافة فئاته وطوائفه، ولا من النخبة المثقفة ـ ورجال القانون بعض منها.

لماذا؟

لأنه لا يمكن اختصار سنوات طويلة من القهر والعذاب فجأة هكذا.. لا يمكن نسيان كل تلك العقود من الخوف والخنوع والذل. صدام حسين حتى وهو فى الأسر يكتسب سمات الديكتاتور. ولن نجد عراقياً واحداً قادراً على مطاولة قامته والوقوف أمامه.

الطاغية يظل يحتفظ بسحره حتى وهو زاحف من قبو، أو قابع فى قفص.

سوف يتردد قضاته أمامه وسوف يتلعثمون، سوف يخافون بطشه حتى وهو تحت أيديهم، سوف يتذكرون أساطير مدوية اقترنت باسمه وهالة مرعبة سكنت نفوسهم من حوله.

سوف يرتبكون ويفقدون الرشد والهدى.

لذا فإنه من الأفضل أن يحاكم صدام أمام محكمة دولية.

خاصة أن ذلك سوف يعطى الشعب العراقى والعربى من حوله رسالة مهمة مؤداها أن العالم كله فى الصورة وأن

الأمر يتجاوز ذلك النطاق المحلى الضيق الذى ربما يثير ظلالاً طائفية وعشائرية لا داعى لها.

ذلك أنه حتى إذا استطاع بعض العراقيين القادمين مع الأمريكان والموالين لهم من أعضاء المجلس الانتقالى ومن لف لفهم أن يحاكموا صدام بشكل عراقى منفرد، وأن يظهر ذلك للعالم كله وللعراقيين داخل العراق، فإن ذلك الأمر سوف يحمل مخاطرة واضحة تتعلق بمصير قضاة صدام أنفسهم، ذلك أن الشعب العراقى سوف يؤول المسألة على نحو عشائرى محض.

ولنتذكر أنه بعد القبض عليه قد سادت حالة حزن عام فى منطقة العوجة وتكريت (**مسقط رأسه**) بل لقد نقلت جريدة الحياة اللندنية كذلك فى اليوم التالى على إعلان خبر القبض عليه أن «رد الفعل كان مختلفاً فى المدن القريبة من الحدود السورية العراقية... الناس كانوا فى حالة صدمة لاعتقال صدام. خصوصاً زعماء العشائر التى لها امتدادات عائلية داخل العراق» والوصف منسوب إلى مراسل الجريدة فى مدينة الحسكة السورية.

من ناحية أخرى فإن ذلك ـ المحاكمة عراقياً ـ سوف يدفع الشعب العراقى فى مجمله إلى أن ينظر إلى قضاة صدام

باعتبارهم خونة منفذين لمشيئة الاحتلال، وأنهم أوقفوا «البطل» صدام موقف ذل أرادوا منه إذلال الأمة كلها معه.. إلخ.

هذا شيء لا مفر منه، يجب علينا أن نعترف به ولا نخجل. الديمقراطية لن تجيء بين يوم وليلة، وصدام سوف يظل هاجس كثيرين حتى بعد موته.



لو كان الشعب قادراً بالفعل على القيام بتلك المهمة ـ محاكمة صدام. لو كان يستطيع. لكان ذلك من أحب الأشياء إلينا. أن ترى صدام يحاكم بيد ضحاياه بالفعل. أن نرى الشعب يقتص منه بنفسه. لكننا ـ للأسف ـ نعتقد أن صدام لو أطلق إلى الجماهير العريضة التى تعطينا الانطباع لوهلة أحياناً بأنها سوف تمزقه إرباً ـ نقول إن صدام لو قدم إلى هذه الجماهير فجأة فإننا لا نستبعد أن نراها تركع أمامه وترقص وتهتف باسمه وبحياته.

الرعب من صدام لا يزال يسكن القلوب. وكثيرون ظلوا يشكون فى عودته بعد ٩ أبريل. كثيرون ظلوا يتصورونه نوعاً ما من العنقاء. وأنه سوف ينفض الغبار عن نفسه لينتفض من جديد ويفرد ظلمه أجنحته على العراق من جديد.

حتى بعد القبض عليه، رأينا تلك الأفكار التى انتشرت بشدة عن أن صدام قد خدر وأن الأمريكان أرادوا إلحاق المهانة به بتصويره على هذا النحو الرث التائه الهزيل. وأن صدام الحقيقى ليس هكذا أبداً.. إلخ.

حتى أعداؤه يرتجفون منه، حتى الذين يعادونه ويكرهونه لن يستطيعوا إذا ما واجهوه إلا أن يولوا الأدبار. وليس ذلك لسبب فى صدام نفسه أو يرجع إليه. وإنما هو فعل عقود الديكتاتورية وسواد ليلها البغيض.

الشعب العراقى فى حاجة إلى بعض الوقت للتعافى والعودة إلى حال عليه بعض الشىء. وموضوع محاكمة صدام أمام محكمة عراقية ذاك موضوع سابق لأوانه ويحمل قدراً من الرعونة وعدم الواقعية. ولعله إن تم يحمل قنابل موقوتة سوف تنفجر تحت أقدام القائمين به وعليه.

الأمر الذى نرى معه ألا نشغل أنفسنا به كثيراً. وأن نتركه لهيئة دولية تمارس شئونها فيه تبعاً لما يستقر عليه من قواعد.. المهم هو المحاكمة ذاتها وما تعنيه وما يطرح فيها. وليس المهم على يد من تكون.

ليس فى ذلك شىء ماس بالوطنية العراقية. فصدام على أى حال صار «دولى» بجرائمه ولغيرنا نصيب من مصائبه

وبلاويه مثل ما لنا. لذا فإنه لا مانع هناك من أن يقوم ذلك الغير بممارسة محاكمة تحاسب صدام على ما فعل بنا وبغيرنا فى نفس الوقت. على أن نتابعها بدقة ووعى.

لعلنا عن طريق ما يطرح فيها وما يقال، ما يجرى فيها وما يدور، نفهم ونتعلم. وأن نجد أنفسنا بعدها وقد كسرنا ـ ولو إلى حد ما ـ حاجز الخوف الذى صنعه الطغيان فينا على مدى تاريخ طويل.

الإصرار على عراقية هيئة المحاكمة بدعوى الوطنية لا داعى له. «العدل» عالمى بطبعه وليس من الضرورى أن يرتدى شارة عراقية. المهم أن يكون مردوده الأعظم عراقياً وأن يؤتى ثماره الأهم على الساحة العراقية ذاتها قبل غيرها..

وقتها سوف نكون كسبنا من المحاكمة الكثير والكثير. كسبنا أهم ما نبتغيه منها: كسر حاجز الخوف والرهبة، وامتلاك القدرة على المصارحة والوضوح والنظر إلى الأشياء فى ثقة ويقين، دون ازدواجية فى الفكر واللسان، ودون ظلال خوف يصنعها شبح ديكتاتور.

وقتها لن يكون هناك مكان لديكتاتور. هذا ما نتمناه.. ولعله يتحقق.

تحولات المجتمع

ـ جذور الصدامية

حتى بعد القبض عليه، حتى بعد القبض على معظم المطلوبين من أركان دولته ونظامه. حتى بعد السيطرة على العراق من قبل الأمريكان، تظل «الصدامية» خطراً داهماً. لأنها ـ ببساطة ـ ليست ممثلة فى شخص صدام حسين وحده. ولا هى نظام بعينه، ولا هى قاصرة على نطاق العراق دون سواه.

الصدامية تيار فكرى. روح. إيمان. معتقد. شىء ما يسرى فى الهواء. شىء ما يبعثه التخلف وينميه. يدفعه بعيداً ويجعله يسيطر فى النهاية.

الصدامية هى سليلة قيم مجتمع متخلف ـ من ناحية ـ وهى ـ من ناحية أخرى ـ نتاج لتحولات جسيمة أصابت الحياة السياسية العربية طوال العقود الثلاثة الماضية ـ التى شهدت صعود الظاهرة وتمكنها ثم سقوطها وانهيارها.

هذه التحولات تذكرنا من بعض النواحى بالدكتور چيكل ومستر هايد. بالقصة الطفولية القديمة عن الفتاة التى راحت تزور جدتها فوجدت الذئب **(وكان قد أكل جدتها)** جالساً فى سريرها مرتدياً ثيابها متحدثاً بصوت أراد أن يجعله صوتها. بأفلام الرعب الأمريكية حيث لا تأمن على نفسك من أحد مهما كانت قرابته إليك. فجأة سوف تجد صديقك ـ رفيقك ـ حبيبك متحولاً. يهاجمك يعاديك. يسعى للتخلص منك... إلخ.

شىء على مثال هذا حدث على الساحة العربية. حدث فى الفكر والسياسة. فى المجتمع والأحلام ـ الرؤى والأهداف التى يتم السعى لتحقيقها.

فجأة. ودون توقع أو انتظار. وأحياناً دون تنبه على الإطلاق. تحول كل شىء. فإذا بالجدة الرقيقة تكشف عن وجه الذئب. وإذا بالدكتور چيكل يتحول إلى مستر هايد. ويسود الرعب.

ولنتأمل خمسة عناصر لتحولات قدر لها أن تتحكم فى مصائر المنطقة وأن تجعل ـ فى النهاية ـ شيئاً ما على مثال صدام حسين والصدامية أمراً ممكناً.

١ ــ تدهشنا ــ حقيقة ـ تحولات حزب البعث. وينطرح التساؤل:
كيف تحول حزب البعث بهذا الشكل وإلى هذه الدرجة.

كان الحزب القديم مجرد منتدى ثقافى. ساحة للفكر. نافذة على الأحلام.

ثم ـ فجأة ــ جاءت التحولات. البداية باللعب مع تكتيكات السياسة وتقلبات أيامها. ثم العلاقة المضطربة مع الناصرية ــ بين الحب والكراهية ــ التحالف والعداء. ثم التسليم الكامل أمام العسكر.

وهكذا فإنه فى لحظة ما مع منتصف الستينيات كان البعث القديم أثراً بعد عين. وكان «الحزب» الجديد مجرد منظمة بيروقراطية لا تحمل من معالم الحزب القديم سوى الاسم وبضع عبارات عامة مفرغة من معناها كان الطلاق كاملاً والقطيعة شاملة حتى وإن لم يجر الاعتراف بها.

بل إنه من اللافت للنظر كذلك أن انزلاق حزب البعث إلى مواقع اليمين تم عبر قفزة واسعة إلى اليسار. ليس فقط تحول وإنما خداع بصرى مدهش فعبر فاصل يسارى زاعق بالألوان الحمراء من على صالح السعدى والميليشيا الشعبية فى العراق إلى صلاح جديد وحمى التأميمات فى سوريا، كان الحزب يستعد للتحول كلية إلى مواقع يمينية محضة.

كان السعدى مقدمة لصدام. وكان جديد مقدمة لحافظ الأسد.

وكانت الهزة العنيفة بين أقصى أشكال اليسار الطفولى إلى أقصى اليمين تتم بشكل مباغت وغير متوقع.

ترافق ذلك التحول - أيضاً - مع حربين. حرب سوريا البعثية فى لبنان والتى تضاءلت فيها شعارات البعث القومية إلى المستوى القطرى. وحرب العراق البعثى مع إيران والتى انتفخت فيها شعارات البعث القومية بأفكار عرقية طائفية.

وفى الحالين فإن التحولات كانت تمارس عملها بشكل كامل ومتواصل وبلا توقف.

يكفى - فى مقام الرمز على ما انتهت إليه روح الحزب من تشوه وتغيير - أن نشير إلى أن الثلاثى الذهبى المؤسس للحزب قضى بقية عمره فى المنافى ليموت أحدهم محزوناً (**أكرم الحورانى**) والثانى مقتولاً (**صلاح البيطار**) والثالث تحت الحصار (**ميشيل عفلق**).

كيف حدث هذا؟! كيف فقد الحزب روحه وتحول إلى مسخ مشوه على هذا النحو؟!

كيف انتهى إلى هذه النهاية؟!.. لغز يحتاج إلى تفسير.

٢ ـ كيف تحول الفكر القومى العربى إلى فكر قطرى ـ طائفى ـ عنصرى.

كيف تحول القوميون العرب إلى مغازلة العشائر والبطون والأفخاذ فى بلادهم، إلى مخاطبة الوعى الدينى واستخدام النبرة الدينية والخطاب الدينى والرمز الدينى فى مصطلحاتهم؟!

كيف حولوا الخطاب القومى إلى عنصرى فى تعامله مع الخارج ـ حرب إيران ـ مثلاً وإلى خطاب طائفى فى تعامله مع الداخل ـ الحقوق السياسية للأقليات؟!

كيف تحولت القومية العربية من تيار مكتسح طوال الفترة من ٥٥ ـ ١٩٦٥ إلى حالة جزر عنيف لم تدع لها أملاً إلا فى التحالف مع الإسلاميين أو التهادن مع التكوينات العشائرية فى بلادهم.. إلخ؟!

كيف حدث هذا التحول؟! وكيف نؤرخ له تحديداً؟! لغز يحتاج إلى تفسير.

٣ ـ كيف انتقل الشرق الأوسط ما بين حربين ـ ٦٧ ـ ١٩٧٣ ـ من حال إلى حال.

رغم حرب أكتوبر والثروة النفطية، فإن التضامن العربى راح ينفرط بسهولة وبسرعة خارقة.

سنتان بعد الحرب وانفجرت حرب لبنان، سنتان بعدها وكان السادات فى القدس، سنتان إضافيتان وكانت معاهدة كامب ديڤيد وكان المشرق العربى يواجه العاصفة وحيداً.

كيف تحقق ذلك رغم الشراكة العربية بالدم والسلاح فى الحرب عام ١٩٧٣.

قيل وقتها كلام كثير عن إمكان بناء جبهة شرقية تجمع سوريا والعراق، لكننا نعلم أن ذلك لم يحدث وأن العجز شل الجميع.

كيف حدث ذلك؟! لغز آخر يحتاج إلى تفسير.

٤ ـ كيف تحولت مصائر الشرق الأوسط كله من آفاق اشتراكية يسارية، قومية علمانية، إلى آفاق دينية محضة؟!

كيف حدث هذا التحول من لغة الستينيات الزاعقة بالأيديولوچيا إلى النصوص الدينية والكلام عن الحلال والحرام و«العلم والإيمان» و «الشريعة والحياة» ؟!.... إلخ.

كيف حدث أن أكبر ثورة شعبية حدثت فى المنطقة ـ ثورة إيران ـ كانت ثورة دينية ـ شيعية ـ وأن أكبر حركة مقاومة شهدتها المنطقة ـ مقاومة الجنوب اللبنانى ـ كانت

مقاومة دينية ـ شيعية كذلك؟!

بعض اليساريين يستنكرون قول ذلك ويعاندون فيقولون إن الثورة الإيرانية ثورة شعبية «خطفها» آيات الله، وأن التيارات اليسارية كانت موجودة ضمن مقاومة الجنوب اللبنانى كذلك.

لكن الحقيقة ساطعة، لقد حدث التحول بنسبة ١٨٠ درجة من أفكار البورجوازية الصغيرة الثورية على مثال «الميثاق» فى مصر و «بعض المنطلقات النظرية» فى سوريا إلى أفكار السلف الصالح و«قال الله قال الرسول».

كيف حدث هذا؟!.. كيف تم. لغز كبير آخر يحتاج إلى تفسير.

٥ ـ كيف تحولت إسرائيل من دولة معزولة محاصرة إلى سيدة المنطقة؟!

كيف تحولت أمريكا من دولة تجاهد لدخول المنطقة لإرث الإمبراطوريات القديمة إلى المتحكم الفاعل الرئيسى فيها.

كيف تحولت علاقة أمريكا بإسرائيل إلى حالة تحالف استراتيچى كامل؟!

هذه التحولات كلها، هذه الألغاز كلها سوف تسهم ـ إلى

حد كبير ـ فى فهم ظاهرة صدام حسين على حقيقتها.

صدام ليس فرداً واحداً. والصدامية ليست حزب أو جماعة وإنما هى تيار سياسى ـ فكرى عام يعتمد بالأساس على تلك الشبكة الهائلة من التقاطعات والتداخلات التى أحدثتها التحولات السالفة.

نقطة التلاقى بين كل هذه التحولات هى التربة التى نمت فيها الصدامية وترعرعت. هى الأساس الذى قامت عليه.

جذور الصدامية يكمن فى تلك اللحظة الرهيبة بين منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات التى انكسر فيها منحنى التطور للعقل السياسى العربى والشخصية العربية.

تلك اللحظة التى استقطرت جماع الهزائم من هزيمة ٦٧ إلى هزيمة اليسار اللبنانى والمقاومة الفلسطينية فى الحرب الأهلية اللبنانية. هذه اللحظة التى لم تستطع حتى ولا حرب أكتوبر ١٩٧٣ أن تصلح من شأنها أو تعدل من آثارها. على العكس فقد دعمت نتائج حرب أكتوبر (**فك الاشتباك الأول والثانى، ارتفاع أسعار النفط**) ذلك المناخ كله.

فى ذلك المناخ الأسود. فى تلك التربة السوداء نمت الصدامية ومدت جذورها بعيداً.

ولأن هذه الأرضية الخصبة لنشأة الاستبداد لم تعالج بعد ـ فالروح العربية على ما هى عليه من تخلف. والسياسة العربية على حالها من ركود وتعفن (**يكفى أن نشير إلى أزمة الشرق الأوسط وهى الأزمة الواقعة فى مكانها لا تريم منذ عام ١٩٦٧ على الأقل**) ـ لذلك كله فإن الخوف من الصدامية يعد مفهوماً والخوف من استفحال أمرها طبيعى. والعمل على محاصرة تأثيرها والعلاج من عند الجذور يعد ضرورة حياة أو موت. بدون ذلك سوف ينتصر صدام حسين حتى وهو فى محبسه. أو أن الطريق سيظل مفتوحاً لخلف له يذكره بالخير ويقتدى به بل ويعده مظلوماً كذلك.

لو لم تعالج تربة الصدامية هذه؛ فإن كل شىء يظل مهدداً وعرضة لتقلب الحال، حتى وإن كان صدام فى الأسر والبعثيون فى السجون الأخطر من صدام هى الصدامية. والأخطر منهما معاً هى بنية المجتمع التى تفرزهما، هذا المجتمع هو الذى تجب مواجهته الآن، بلا رحمة ولا هوادة.

سقوط صدام حسين يجب أن يعد فرصة لإسقاط بنية المجتمع التقليدى ذاته وتحدياً للشروط السياسية التى أفرزت أمثال صدام حسين.

من دون ذلك فإن كل ما تحقق سيظل معرضاً للضياع.
وكل ما ضاع سيظل قابلاً لأن يضيع مرات ومرات.

ملحق:

يمكن أن نضيف إلى كل ما سلف من تحولات أشياء أخرى كثيرة تتعلق لا بالسياسة وحسب وإنما بما يحدث فى المجتمع وعبر رموزه البارزة اجتماعياً ـ وحتى فينا.

ولنتساءل:

كيف تحولت الموضة السائدة من الملابس القصيرة والمكشوفة فى بداية السبعينيات، إلى الحجاب الذى كاد يعم المجتمع المصرى كله فى التسعينيات؟!

كيف تحول حسن يوسف الفتى الشقى فى الستينيات إلى «الشيخ الشعراوى»؟!

كيف تحولت شمس البارودى نجمة إغراء مطالع السبعينيات إلى امرأة منقبة تتنكر لأفلامها وتطالب بالتخلص منها؟!

وكيف تحولت شادية من «الدلوعة» كما كانوا يسمونها إلى امرأة محتجبة تفضل الصمت والاتزواء؟!

كيف تحول عدد من المفكرين المصريين من الماركسية

إلى الإسلام السياسى (**أبرزهم وأشهرهم محمد عمارة، عادل حسين**) ؟!

كيف تحول عدد من الماركسيين من النضال ضد الإمبريالية وحليفتها إسرائيل ـ رأس الحربة فى المنطقة، إلى المناداة بالتطبيع والعولمة والدفاع عن النظم الحاكمة خوفاً من احتمالات فوز الإسلام السياسى عليها؟!

فى كل هذه الحالات هناك لحظة انكسار شخصية وعامة.

هناك لحظة ما.. وسبب ما.

يمكن تحديد ذلك بسقوط المشروع القومى ـ هزيمة ٦٧، هزيمة التحالف الثورى فى الحرب اللبنانية، هزيمة بيروت ٨٢. صعود المشروع الإسلامى ـ عبر الثورة الإيرانية والانقلاب النفطى وسيادة عصر البترودولار.

فشل المشروع الحداثى والإحساس الواضح بعدم القدرة على اللحاق بركب الحضارة الحديثة، ومن ثم تفضيل العودة إلى الماضى والرغبة فى إعادة استنساخه.

(هذه الرغبة فى الاستنساخ لا تقتصر على استعادة التاريخ الإسلامى وحده، وإنما نجد مظاهرها كذلك حتى فى الحياة الفنية.. كيف لا

نلاحظ أن صفوان بهلوان - مثلاً - هو طبعة بالاستنساخ من عبد الوهاب، عبده شريف كذلك طبعة أخرى من عبد الحليم. وقبل ذلك وبعده مستنسخات أم كلثوم من سوزان عطية إلى أمال ماهر.

صورة لمجتمع توقف عن التجدد والعطاء وصار لا هم له إلا بعث الماضى وإحياؤه من جديد.) .

هناك لحظة ما - مرعبة بحق - أدرك فيها العقل العربى ولو بالغريزة قبل الوعى، ولو بالإحساس المباشر قبل توافر الوقائع والتبين منها بشكل محدد ودقيق - إنه أمام عوائق لا قبل له بها، أو أنه يتهيب التعرض لها، ويفضل الانسحاب، أن يلوى على عقبيه وأن ينطلق نحو الماضى.

رد فعل غريزى على حالة تحدٍ رهيب. من هنا فإنه راح يحملق فى الماضى البعيد (**ماضى الرسالة النبوية وعصر الصحابة**) ثم إنه راح يحتفظ بشارات وطقوس العصور الوسطى (**متصورًا أنها خصوصيته وعلامة تميزه**) ثم إنه راح يعادى العصر بكل ما فيه من همة.

فإذا كان لم يجد لنفسه مكاناً فيه فلا أقل من أن يثبت أنه

لا يهمه الأمر، لا يعنيه.

هنا توافرت أركان حالة نفسية بالغة التميز بالغة الأهمية ترافقت وتواءمت مع لحظة الهزائم والخراب هذه. تلك الحالة التى تتشبع فيها النفسية العربية بمزيج من الإحساس بالعار والمهانة مع العظمة والكبرياء. الإحساس بالمطاردة وأن الآخرين يتعقبونها بالرغبة فى السيطرة والتحكم، مع الإحساس بالأمان فى حضن الماضى وأن «الحاضر» الذى يتصارعون عليه لا قيمة له.

الإحساس بالظلم والغبن مع الإيمان القطعى بامتلاك الحقيقة المطلقة.. هذه الحالة التى سود فيها الخوف من الحاضر والعجز عن التعامل معه واللواذ بالماضى والاستكانة فى حضنه..

التى يسود فيها تصور للزمن يراه دائرياً يعد من حيث بدأ ويستعيد ما سبق أن نسخ.

هذه الحالة هى بذاتها أحد أكبر ممهدات الفاشية ـ عموماً ـ وأحد أكبر مقدماتها النظرية والنفسية. وقد كانت كامنة فى قلب الظاهرة الصدامية كانت جذرها البعيد. كما أنها المسئولة اليوم ـ كذلك ـ عن كثير من ردود الفعل المتعاطفة مع صدام

بعد إلقاء القبض عليه. وستصل ما لم يتم علاجها بشكل ثورى حقيقى وفعال وراء كل صعود ممكن لطاغية جديد ينتظر دوره الآن فى الكواليس الخلفية لمسرح السياسة العربية.

فلنبادر إلى الحركة قبل فوات الأوان، ولنجتث جذور الفاشية دون تردد ولا تأخير.

هذا هو الطريق الوحيد نحو المستقبل، وإلا فإنه ـ ببساطة ـ لن يصير هناك مستقبل.

* * *

صاعداً من قبو:

التحليل النفسى لصدام

هناك لبس ما، تناقض صغير يسبب إرباكاً، فصدام حسين الذى استسلم للأمريكان يوم ٢٠٠٣/١٢/١٣ لم يبد تعاوناً كافٍ معهم عند استجوابه. وقد قالوا: إنه رابط الجأش لكنه مقتضب فى الرد على الأسئلة. وكان أربعة من أعضاء المجلس الانتقالى قد زاروه وحدث بينهم ما أسمته الصحف بـ «تلاسن» كلامى.. الأمر الذى وجد فيه مؤيدوه سنداً لهم فى القول بأن صدام كان قد خُدِّر لحظة إلقاء القبض عليه وإلا ما كان استسلم ولا كان ظهر على الشريط المسجل على هذا النحو من الاستكانة.

وكان تفسير أعضاء مجلس الحكم الذين سُئلوا عن ذلك الاستسلام المهين أن صدام جبان بطبعه وأن ذلك لم يبد سلفاً لكنهم كانوا يعرفون. وها هو طبعه يظهر أخيراً.

لكن كـيف نـوفق بين ذلك وبين «تلاسنه» مـعـهـم وعـدم تجاوبه مع التحقيقات ومع ما نسب إليه من أقوال بعد القبض عليه يبدو فيها هجومياً مستهزئاً.

هذا تناقض يتعين حله وتفسيره، واعتقادنا أن تفسيره نفسى محض، يتعلق بطبيعة شخصية وأفكار الرئيس صدام حسين نفسه.

وسنعمل على ذلك على النحو التالى، وعبر ثلاث خطوات:

أولاً: إسفنجة مشبعة بالدم:

تبدو السياسة من بعيد عالماً معقداً، مليئاً بالرسوم والطقوس، محتشداً بالتفاصيل والبروتوكولات واللقاءات والبيانات... شيء مرهق جداً.

كما تبدو فكرة الثورة ـ أو الانقلاب ـ كذلك وكأنها شيء ما غامض، قدرى، غير مفهوم، لحظة تحل. يوم ما يجيء فإذا بنظام كامل ينتهى وآخر يقوم محله. كيف يحدث هذا، يبدو الأمر كما لو كان إحدى الغرائب غير المتوقعة والمباغتة كذلك.

ثم إن التعامل فى بحر السياسات الإقليمية والدولية ـ خاصة فى ظروف متغيرات شاملة ـ يبدو كذلك نوعاً ما من السحر، يحتاج إلى قدرة خاصة ومواهب خارقة للعادة.

لكن الحقيقة ـ التى عرفها صدام حسين وغيره من الطغاة ـ غير هذا تماماً. الحقيقة خلاف كل تلك الصور المثبطة للهمم والعزائم. فالسياسة و«الثورة» والعمل الإقليمى والدولى، والحفاظ على السلطة ذاتها.... إلخ. كل ذلك مجرد إجراءات بسيطة للغاية تافهة للغاية تماثل ـ من بعض الوجوه ـ ذات الحياة اليومية العادية لأى إنسان.

فكما يمارس الشخص العادى حياته، يمارس السياسى مهامه ورهبة المناصب وبعد المسافة بين القمة والقاعدة وهالة وبريق الشهرة والإعلام هىٰ وحدها التى تلقى حجاباً كثيفاً من الاستغراب والدهشة بين رجل الشارع العادى وعمل السياسة.

لكن الأمر أكثر بساطة بكثير.

كل ما يحتاجه المرء كثير من المقدرة والحزم، كثير من الإصرار والرغبة فى التغيير، فى الرفض للوضع القائم والبحث الدائب عن وسائل تغييره... البحث عن فرص لدخول التاريخ، يكفى أن تريد فإذا بكل شىء يتحقق.

هكذا يفكر الطغاة دائماً فى البداية، وصدام حسين ليس استثناء.

اللغز الكبير الذى يشغل الطغاة ـ دائماً ـ هو لغز الحياة ذاتها ومعناها. إنهم يجدون فى أنفسهم طاقة تساعدهم على الفعل ويجدون فى الظروف من حولهم انصياعاً، وفى الناس خضوعاً، فإذا بكل شىء يلين لهم.

لو ظلوا جالسين هكذا فلن يحدث أى شىء على الإطلاق، أما لو تحركوا.. لو أخذوا زمام الفعل، فإن كل شىء سوف يستجيب لهم فى بساطة مدهشة. وهو ما يغرى بطلب المزيد، وهو ما ينقل صدام حسين على الدوام من شخص لا قيمة له إلى أحد الضالعين فى مؤامرة لاغتيال عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٩ إلى منفى فى القاهرة إلى حزبى فى بغداد إلى حياة السر مرة أخرى بعد سقوط الحزب ثم... «السيد النائب».

فى كل هذه المراحل كان الأسلوب واحداً: العزم على الفعل والعمل على التغيير.. فإذا بكل شىء يندفع معه إلى الأمام.

ولقد جرَّب صدام تأثيره فى العوجة وما حولها. وقد صار نوعاً ما من فتوة ـ قبضاى ـ متشرد عنيف وقاسٍ. ولازمه المسدس من وقتها.

المسدس، سلاح الأقوياء..والأقوياء يدركون ـ ويا للغرابة ـ أن الحياة على عظمتها مطواعة سلسلة القياد. وأنها يمكن أن

تنتهى ـ كذلك ـ فى لحظة. تكفى طلقة رصاص صغيرة هكذا حتى يموت عد وتنزاح غمة.. تكفى ضغطة صغيرة بمدية فى جنب إنسان حتى يتدفق الدم، كأن جسده إسفنجة مشبعة بذلك السائل الأحمر الغامض ـ الملتبس، أين الحياة إذن؟! ما الحياة إذن؟! عندما يسيل ذلك اللون الأحمر يذوى الجسد ويموت، يتهالك وينتهى كأن لم يكن هكذا فى لحظة، طلقة الرصاص توفر الجهد البدنى.

لو كانت الطلقات المنصبة على عبدالكريم قاسم عام ٥٩ قد أصابته لكان تاريخ العراق قد تغير، لكنه فلت.. طلقات أخرى ما كان لها أن تفلته عام ١٩٦٣ ويعود الحزب إلى السلطة.

الحياة بالغة البساطة، لكنها بالغة الإمتاع كذلك وهى لا تفشى بأسرارها إلا لذوى الجرأة والبأس، أما العاديون من البشر فلاحظ لهم سوى طاعة الأقوياء.

ما معنى الانقلاب.. مجرد مجموعة دبابات فى الأركان وضباط فى المقدمة. بضع رصاصات وبضعة بيانات حماسية.. ويتغير وجه التاريخ.

صدام حسين كان فى القاهرة بعد تجربته الفاشلة لاغتيال

عبد الكريم قاسم. وهناك رأى عن قرب مصر الستينيات التى تدين بمجدها لعبد الناصر. مَنْ كان يسمع عن عبد الناصر قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢؟! لا أحد. ماذا كان يحدث لو أن عبدالناصر قنع بوظيفته وعمله فى الكلية الحربية ولم يشغل باله بالشأن العام؟!

كل شىء يبدأ فكرة، ثم إرادة تعمل على تنفيذها، التاريخ كله قيد الصنع والتشكيل.

فى نفس عام ١٩٦٣ يسقط الحزب وينهار حكمه. لماذا؟ الأخطاء كثيرة، والحزب كان يمكنه أن يظل فى السلطة رغمها، لكن الأمر كله حسم بفعل توازنات معينة فى الجيش والحزب، حسابات معينة أطاحت بالحزب. هذا درس إضافى يؤكد صحة استنتاجات صدام حسين. الأمر كله يحتاج دقة فى الحساب لا أكثر. كل شىء يحسم تبعاً لبضعة توازنات تحكم كل حالة على حدة.

الحياة بأكملها مجموعة توازنات، حسابات تخطئ وأخرى تصيب.

والحسابات التى أخطأت عام ١٩٦٣ أصابت فى يوليو ١٩٦٨ مرتين. مرة بنجاح الانقلاب على عبد الرحمن

عارف فى ١٧ يوليو، ومرة ثانية فى ٣٠ يوليو ـ بفعل مباشر من صدام حسين ـ بالتخلص من عبد الرزاق النايف، الرجل القوى وطرده من قيادة الثورة.

وسوف يتمرس صدام حسين طيلة سنوات بلعبة التوازنات والحسابات هذه. تهادنات وعداوات لا تنى تتقلب وتتبدل مع إيران وسوريا، الأكراد، والشيوعيين والشيعة.. اللعب على كل الحبال. واللعب بالسلطة كذلك.

وهذه سمة مميزة للطغاة العرب. إنهم بالغى المهارة فى لعبة التكتيكات. فى صنع ـ فض ـ مواجهة ـ التخلص من ـ الصراعات الصغيرة.

أما على المستوى الاستراتيجى العام فجهلهم كامل.

فى الطريق يسقط كثيرون ويتم القضاء على كثيرين

وفى العام ١٩٧٩ وبينما مصر تخرج من الساحة باتفاقيات كامب ديڤيد. يتولى صدام حسين الرئاسة أخيراً، بعد أن ظل نائباً للرئيس عقداً كاملاً من الزمن.

ويشتد طموحه إلى أن يلعب دوراً إقليمياً، لكن حساباته منذ تلك اللحظة تخيب كلها **(سواء فى حربه مع إيران أو حربه ضد الكويت أو حربه ضد الأمريكان)** / لماذا؟

لأنه ـ ببساطة ـ محترف لعبة محلية، محترف صنع تكتلات ـ فى الداخل، وضرب طرف بطرف، وحصار طرف من أطراف اللعبة بآخر، والانقضاض على طرف فى حماية حياة طرف آخر.. إلخ.

هذه اللعبة البارعة التى مارسها صدام حسين ـ باقتدار جهنمى ـ فى العراق طوال السبعينيات.. ما كان لها أن تنجح على المستوى الإقليمى.

لقد دخل اللاعب هنا فى أرض ليست أرضه، وتنطح لمهمة ليست مهمته ولا هو يقدر عليها.

وهو قبل ذلك وبعده كان قد أحاط العراق بسياج هائل من الخوف والهلع. مع كل خطوة يتقدمها الديكتاتور تزداد ريبته أكثر ويزداد ضيق الحلقة المحيطة به ويزداد انعزاله عن الجماهير وتزداد أوهامه وثقته بنفسه وقدراته وتزداد أجهزة سلطته قمعاً وطغياناً... لماذا؟

لأنه أول من يدرك أن اللعبة نفسها بالغة البساطة. كان يكفى أن يحدث خطأ صغير. أن يحدث تدخل صغير. أن يحدث تعديل فى الموازين صغير. لتنجرف الأمور كلها إلى حال آخر تماماً. وخوفه الكبير من أن يدرك الناس سر اللعبة. بساطة اللعبة. خوفه من أن يكون هناك من يملك طاقة

فائضة كذلك وإيمان بقانون الجرأة والمغامرة كما كان لديه هو ذاته قديماً. خوفه ممن يمسك مسدساً هو الآخر ويطمح إلى تغيير التاريخ عن طريقه.

لذا فإنه يجب المبادرة إلى صنع إمبراطورية خوف لا نظير لها. ترهب وترعب وتشل كل الطامحين والطامعين.

لقد فقد الحزب السلطة عام ١٩٦٣ واستردها بعد سنوات خمس. ومن يومها للآن وإلى الأبد فإنه لن يفقدها أبداً.. أبداً..

هكذا يفكر صدام حسين.

ثانياً: الديكتاتور يتثاءب فى ضجر:

من بعد عام ١٩٧٩ يشعر صدام حسين بالسأم.

لقد جرَّب بساطة الأشياء، وتمكن من ركوب موجة التاريخ وتسنم ذرى السلطة فى العراق.

كما جرَّب دهاء التكتيك وتوازن السياسة ورسخ «جمهورية الخوف» وقضى على كل الخصوم.

الآن عليه أن يمارس الضجر كذلك، لقد صار وحيداً على القمة كما انجرت قدمه إلى حرب طويلة الأمد مع إيران، أخطأت الحسابات لأول مرة وبدأ العد التنازلى، لكنه لا

يعترف بذلك... حتى بساطة الأشياء تربكها التعقيدات.. تعقيدات طقوس الرئاسة والبروتوكولات وهى ضرورية ـ ما إجراءات القمع كذلك ـ لإيقاع الرهبة فى القلوب وفرض الاحترام.

لذا فإننا نلاحظ عدة أشياء متداخلة فى حياة صدام حسين: كيف أنه كان أحد أقل القادة العرب ظهوراً، وأحد أكثرهم ضجراً بمراسم البروتوكولات وعدم التزامه كثيراً بها.

ثم إنه لجأ إلى كتابة الرواية كذلك ـ أكثر من واحدة لم تنسب إليه بالاسم وإن كان الاتفاق معقوداً على أنها تخصه ـ والرواية عالم خيال يصنع فيه المؤلف ـ مهما كانت ركاكته وعجزه ـ دنيا من ناس وأحداث متوهمين.

الرواية هنا نتاج إضافى للطاقة الفائضة عند صدام حسين ولرغبته الأكيدة فى السيطرة على الأشياء ـ حتى ولو كانت من صنع الخيال، بعد أن سيطر على الواقع وما فيه.

ثم إنه يتزوج مرة ثانية من سميرة الشهبندر.. التى يرغم زوجها على تطليقها حسبما قيل **(والتى راجت شائعات فى النهاية عن أن المعلومات التى قادت إلى إلقاء القبض عليه جاءت عن طريقها كذلك، أو بسبب**

منها) .

طريقة إعجابه بها لافتة للنظر كذلك، «قالت: إنها كانت متزوجة من طيار عراقى عندما وقع نظر صدام عليها فى بداية الثمانينيات الماضية، أثناء رحلة مدرسية شاركت فيها ابنته الصغرى. وقالت: إن زواجها فى تلك المرحلة كان يمر بصعوبات. وصادف أن سافر زوجها الذى أنجبت منه ولداً وبنتاً إلى الخارج. لتفاجأ بصدام وقد حضر لزيارتها فى البيت حاملاً باقة من الورود. وقالت: إنها أدركت فى تلك اللحظة أن الرجل وقع فى حبها. وهكذا أصبحت خليلة له. ولاحقاً خطف صدام زوجها وأرغمه على التنازل والطلاق ثم عينه فى منصب عالٍ فى الخطوط الجوية العراقية لتتزوج هى من صدام» .

(حوار سميرة الشهبندر مع الصنداى تايمز، نقلاً عن الحياة اللندنية الصادرة فى ١٥ ديسمبر ٢٠٠٣) .

حب من أول نظرة إذن، شىء غريب فى حياة ديكتاتور، لكنه مزاج فنى إلى حد ما .

يتفق مع ذلك الهوى السريع والميل إلى الأدب كذلك كثير من الظواهر الأخرى فى عراق صدام حسين: الاستخدام

المفرط لـ «الدوبليرات» والبدائل للرئيس وأبنائه (ليس الأمر مجرد احتياطات أمنية ـ ولعله هوس أمنى بمعنى أكثر دقة ـ وإنما فيه كذلك لمسة فنية من نوع ما ـ وربما مرضية كذلك لكنها فنية رغم كل شيء).

ماذا كان شعور صدام وهو يرى بدائله، يتحركون، يتكلمون يتقمصون دوره؟! لعل ذلك كان يشبع فيه إحساساً ما. شيء ما فى داخله يرغب فى القفز وتحطيم الحواجز ومحو الضجر من الحياة ومن الوجود. وبتزايد وجوه الدوبليرات من حوله وبتأمله فيهم فلعله كان يطمح إلى أن يتأمل نفسه بنفسه. إلى أن يراقب ذاته بذاته. ولعله كان يريد أن يفيض بذاته على كل الدنيا والناس. أن يجعل كل شيء صورة منه ليتأمل فى كل شيء نفسه. وليصبح هو كل شيء بنفسه فينخلع من ذاته ويتخلص من مفعول الضجر.

من هنا تجيء ـ كذلك ـ كل تلك الجداريات والصور والتماثيل لصدام فى كل مكان فى العراق. بكل ذلك الحجم المخيف والهائل. **(وصلت بعض التقديرات إلى تحديد أكثر من ٢٣٨٠ ما بين «أنصاب وتماثيل ولوحات وجداريات من البرونز والقماش والمرمر والشمع. متنوعة الأشكال والألوان ومنتشرة فى ساحات**

وميادين وشوارع المدن والبلدان بالمئات «وأن» بعضها يزيد ارتفاعه على ٣ أو ٤ طوابق» ـ فضلاً عن التفاصيل» .. صالون فندق الرشيد المعتبر الأفخم فى بغداد يضم ٢٢ منها فى حين تحتوى جامعة بغداد على ٧ تماثيل و٩ لوحات وجداريتين ٣ أنصبة» صحيفة الشرق الأوسط ٢٠٠٣/٤/١٠) .

لقـد أراد أن يهـرب من ذاته بأن يوزعـهـا على كل الموجودات. وأن يتصالح معها ـ فى ذات الوقت ـ بتعميمها على كل الموجودات، بمطالعته إياها فى كل ما حوله ونسخ كل شىء على مثاله ونموذجه ليصبح هو المبتدأ والمنتهى.

(بين شقى الرحى هذين تم تدمير العراق. ونقطة التلاقى بين هذين الاتجاهين المتعارضين كانت هى التربة التى أنبتت بذرة التدمير والخراب) .

وقتها لن يصير هناك ضجر، لأنه لن يكون هناك سواه. لن يكون سوى السكينة وحدها والفراغ.

وهكذا يتولد مشروع خرافى يصبح فيه العراق ـ كل العراق مجرد امتداد عضوى لصدام حسين.

حتى غزو الكويت نفسه..

لم يكن ذلك مجرد مشروع إجرامى بالسلب والنهب. ولا مشروعاً امبراطورياً بالتمدد والسيطرة. وليس فقط دلالة على نفاد صبر وسوء حساب، وإنما هو ـ قبل ذلك كله وبعده ـ إشارة واضحة إلى حالة ضجر شامل تتحكم فى نفس صدام حسين. وهو فى رغبته الترويح عن نفسه يرى إعادة تشكيل الجغرافيا والحدود والمواثيق الدولية.

أليس كل شىء بسيطاً كما تعود دائماً، ألا يكفى أن يأخذ قراره ويقر عزمه ويتصرف بجرأة وعزم فإذا بكل شىء ملك يديه..

وبصرف النظر عن سياق الأحداث بعدها فالأهم ـ فى خصوص ما نريد بيانه ـ أن صدام حسين راح يزداد انعزالاً ـ فى وحشة طغيانه ـ عن حقائق كل يوم فى المنطقة ـ الإقليم، وفى العالم الواسع من حوله.

وفى ظروف الحصار، راحت تنمو ظواهر أخرى: الولع ـ أيضاً ـ بالسراديب والأنفاق بالمدن السرية تحت الأرض.

نسخ الحقيقة واصطناع وهم لفظى ـ كذلك ـ عن القادسية وأم المعارك، المقارنة بتاريخ آشور وبابل، نبوخذ نصر وحمورابى... إلخ.

كل ذلك عبارة عن خيال روائى مضخم وموسع ليشمل العراق كله، تاريخ العراق وجغرافيته وحياته اليومية يعاد تشكيلها على مقاس لوثة ديكتاتور.. خيال فنى ركيك لروائى فاشل يمسك فى يده بمقاليد الحكم والسلطة والنفوذ. ضجر يعمل على تشكيل الموجودات، سأم يرغب فى التحطيم وإعادة الخلق، أليست الحياة بسيطة، الموت كذلك بسيط، والتحولات كذلك بسيطة، والسأم يحكم كل شىء.

وما كان ضجره يقل بكل مظاهر الحب والتأييد التى يحيطه بها شعبه. فهو من يعرف أنها كاذبة. هو لا يعطى ثقته لأحد وهؤلاء المبتهجين فى الشوارع الحاملين صورته واسمه ما كانوا ليفعلوا ذلك إلا لأنهم أكثر ضعفاً من أن لا يفعلوا.

(روت سميرة الشهبندر كيف أن صدام أخبرها عن يقينه واعتقاده بأنه لو أعطى الشعب العراقى «تفاحة» واحدة لطلب ـ أو طمع! ـ فى «السلة» بأكملها

هكذا كان يفكر!

إنه يحتقرهم بالفعل؛ لكنه مع ذلك يعمل باسمهم، إنه يعمل

باسم «الجماهير» و «الشعب» .. إلى آخره. لكن مَنْ هي هذه الجماهير وهذا الشعب؟ ليسوا هؤلاء الناس بالتأكيد. مَنْ هم إذن؟ لا أحد يعرف.

صدام يعمل ـ فى نظر نفسه، فى تصوره لقدره ودوره فى المنطقة ـ باسم ناس هناك فى الشعب العراقى.. هو لا يراهم، ولا يعرف شكلهم لكنهم بالتأكيد هناك، والشعب العراقى ـ فى نفس الوقت ـ كله معه بنسبة ١٠٠ ٪ وهو التعبير التاريخى عن إرادة العراق.

لا يخطر فى باله لحظة أن هناك مَنْ يرفضه أو يشكك بجدارته. كل شعب العراق أنصاره.

ولا يخطر فى باله لحظة ـ كذلك ـ أن يركن إليهم أو يثق فيهم.

دائماً هناك طابور خامس، خونة، عملاء للإمبرياليين.. إلخ. هم عراقيون وليسوا بعراقيين، هم فئة باغية ـ قلة مندسة ـ استثناء على الأصل.

والشعب فى مجمله ـ كتلة واحدة غير متمايزة ـ معه. وهذه الكتلة فى حاجة إلى حارس ـ قيم ـ وصى ـ ولى ـ رب عائلة ـ شيخ قبيلة زعيم عشيرة ـ ... إلخ. ومَنْ يكون غير صدام حسين؟! كيف لا يهتفون باسمه إذن؟! وكيف لا

يحتقرهم مع ذلك؟!

عندما يخرج من حفرته فى النهاية (١٣/ ١٢/٢٠٠٣) ينسب إليه القول بأنه حزين لأن «شعبه مستعبد» ـ هكذا. ولا يخطر فى باله لحظة أن سبب ذلك الاستبعاد يعود إليه أو أن له دخلاً فيه.

بعض الحمقى أبهجهم أن «صدام البطل» حتى وهو فى محنته هذه لا ينسى شعبه وأن ذلك دليل كذب كل ما يقال حوله. لكن الأمر أكثر تعقيداً. إنه انعكاس حالة الفصام التى يعانى منها الرئيس العراقى؛ ليس فقط لأنه يغفل مسئوليته. وإنما الأهم فى أن يغفل رفض جموع الشعب العراقى ـ فى معظمها ـ لحكمه ولنظامه. والجملة الأخرى المنسوبة إليه ـ والتى لا يجوز فهم الأولى بدونها ـ عند مخاطبة وفد أعضاء مجلس الحكم الانتقالى له بعد إلغاء القبض عليه، وعند إشارتهم إلىَ جماهير العراق ـ إنه قال واصفاً هذه الجماهير بـ «الغوغاء».

وهذان التعبيران المتناقضان «شعبى مستعبد» و «الغوغاء» فى ذات الوقت، يوجزان فى كثافة وتركيز، مدى عمق وتعقيد العلاقة بين صدام حسين والجماهير فى العراق.

كانت بساطة الأشياء التى تعلمها صدام حسين ومارسها

منذ صباه الباكر تساعده، وكانت الأحداث ترضخ لإرادته. وكان مشروعه الجهنمي يتحقق بسهولة نسبية ودون أى مقاومة فعلية. وكان ذلك يزيد من ضجره كذلك.

لم يعد هناك طعم للأشياء، كل شيء يعلوه الغبار والسأم، والمشكلة الحقيقية أن وسائل الترويح عن النفس قليلة، فلا الزواج ولا الأوكار الجنسية فى القصور ولا ممارسة القتل والإبادة ولا الحرب ولا تلك العبارات الملونة العظيمة ولا التماثيل الشاهقة... لم يكن شيء فى ذلك كفيلاً بجلب الاطمئنان إلى نفسه.

حتى غزو الكويت وضمها إلى العراق، وهو المشروع «الإمبراطورى» الذى يحقق به آمالاً قديمة وطموحات عارمة فى المستقبل، لم يحقق له شيئاً.

كل ذلك ظل غير مجد حقيقة.

ظل الديكتاتور بحاجة إلى شيء ما.. شيء ما..

ثالثاً: «لا تطلقوا النار.. أنا صدام حسين»:

بعض الكُتَّاب أشار هازئاً إلى المقارنة بين حال صدام حسين فى النهاية ـ بعد القبض عليه ـ وبين حاله فى البداية ـ الفتى القديم فى العوجة ـ وقالوا إنه انتهى متشرداً كما بدأ

تماماً.

ويصرف النظر عن السخرية فالأكثر عمقاً ـ حقيقة ـ أن الأمر يحمل بالفعل شيئاً من الشبه.

حيث إن صدام حسين انتهى بالفعل ـ بعد تخليصه بالغزو والاحتلال من السلطة ـ إلى وضع يشبه البداية. يشبه ذلك الفتى في العوجة الذي أراد ـ بفعل إرادته ومسدسه ـ أن يرسم لنفسه طريقه وأن يفرض وجوده على الآخرين ـ في العوجة وتكريت ـ وعلى الساسة ـ في بغداد ـ وفي النهاية على العراق كله.

لقد سقطت سلطة الحزب في العراق للمرة الثانية ـ وبعد أربعة عقود من سقوطها في المرة الأولى عام ١٩٦٣ ـ وعاد صدام حسين مشرداً وطريداً.

ولقد أسدى له الاحتلال خدمة كبيرة رغم كل شيء؛ ذلك أنه خلصه من مفعول الضجر الذي كاد أن يفتك به، وها هو عاد كما كان في الماضي ذلك الفتى البالغ الولع بممارسة التكتيكات واللعب بها

وهكذا. فإنه يخرج من قبوه مستسلماً للأمريكان قائلاً إنه صدام حسين الرئيس العراقي وإنه يريد التفاوض. وقد علّق

البعض على ذلك بسخرية؛ حيث إن شيئاً ما غير مطروح للتفاوض. وصدام لا يملك أية أوراق يتفاوض عليها أو بها، ومع ذلك فإن الأمور تحتمل معنى أعمق. معنى أكثر عمقاً من مجرد تفسير الأمر على معنى العظمة المتلبسة إياه حتى وهو صاعد من قبو، أو تفسير الأمر بأن صدام يريد مقايضة أسرار لديه بحياته.. إلخ.

الأمر يحتمل معنى آخر، تأويلاً آخر يتعلق بذلك الأسلوب القديم الذى يرى أن الأشياء بالغة البساطة، وأن الحسابات الصحيحة سوف تربك الخصوم، عودة إلى اللعبة القديمة من جديد.

الحياة بسيطة للغاية، وهى جميلة كذلك، لقد أخطأ عدى وقصى عندما عرضا نفسيهما لهذه المعركة الشرسة والخطيرة، لقد ماتا ولم يكسبا أى شيء.. لماذا؟ لأنهما ولدا فى العز والترف فلم يعرفا سوى الوحدة مع القمة مع السلطة. أما هو فإنه ذاق طعم الأيام قبل السلطة وجرب فقدها لأول مرة عام ٦٣ **(وإن كان فى الصفوف الخلفية للحزب وقتها)** كما أنه عرف طعم الحرمان وشظف العيش **(ليس مستغرباً والحال كذلك أن يختبئ فيما يشبه قبراً تحت الأرض)**.

وهو قادر على اللعب من جديد، الحياة جميلة أليس كذلك، وهى قابلة للتأثير عليها من كل الأطراف اللاعبين، أليس كذلك.

حسناً. سوف يخرج من القبو الآن، ويسلم نفسه، ولير ماذا سوف يفعلون؟! سوف يريكهم هكذا. سوف يدهشهم تماماً. لن يعرفوا ماذا سوف يفعلون، والآن لنر كيف ستردون علىّ فى هذه اللعبة.

الأمر يحمل متعة إضافية، إذ إنه يلعب مع الأمريكان الآن. ولأنه قوى فإنه لا يرضى بأقل من أن يلعب مع الأقوياء.

الأمريكان.. حلمه القديم، لقد أراد بحرية ضد إيران أن يصبح هو وكيلهم فى الشرق الأوسط، لقد أراد أن يسمحوا له بأن يبتلع الكويت وكانوا سيرون بعدها كيف كان سيعاملهم؟! كيف كانوا سيكسبون معه أكثر مما كانوا يفعلون مع شيوخ البترول التقليديين هؤلاء؟!

إنهم لم يفهموا، هذه واحدة، ثم إنهم لم ينتصروا عليه فى عام ١٩٩٠ ، هذه ثانية.،ثم إنهم لم يطيحوا به على مدى كل تلك السنوات من الحصار، هذه ثالثة.

والآن. لعلهم قد انتصروا، لكن اللعبة لم تنته بعد، وها هو

قادر حتى وهم يحاصرونه على أن يربكهم. سوف يخرج إليهم مستسلماً لكنه سوف يرى كيف سيضطربون أمامه ولن يعرفوا كيف يتصرفون.

الأمريكان أخيراً. ها هى اللعبة تصبح أكثر إمتاعاً.

لعلنا لا ننسى أن صدام حسين قد اندفع نحو الكويت بعد حديثه الشهير مع إيريل جلاسبى السفيرة الأمريكية فى العراق. وقتها ساد كلام كثير حول أن الأمريكان أعطوا الضوء الأخضر لصدام، وأن جلاسبى أخطأت فى الإيحاءات التى قدمتها للرئيس العراقى.. إلى آخره.

لكن الأهم من ذلك ـ الأهم من أن نقرأ الأحداث من زاوية المنطوق والمقصود أمريكياً ـ أن نتنبه إلى حقيقة المغزى من زاوية العراق ـ وصدام حسين تحديداً.

لقد أراد صدام ـ بحديثه مع إيريل جلاسبى ـ أن يحصل على تأكيد ـ ضمان من الأمريكان ـ بأن الأمر لا يعنيهم. صدام لم يعاد الأمريكان ولم يفكر فى معاداتهم ـ حتى فى غزوه للكويت، فقد كان يتصور أن ذلك أمر يمكن تجاوزه.

لقد تصرف مع الأمريكان ـ حسبما يرى ـ بحماقة. وحماقتهم الآن سوف تنكشف تماماً. لقد عاش فى العز ثلاثة

عقود وزيادة لكنه لم ينس بعد حياة التخفى والهرب. وها هى الأيام القديمة تعود، وها هو يتخفى ثمانية شهور ثم يخرج فى مساء إحدى الليالى من تحت الأرض مستسلماً نعم ولكن مربكاً لخصومه كذلك.

ولن تكون هذه بحال هى النهاية.

لذا فإنه يسخر من خصومه ـ من أعضاء المجلس الانتقالى ـ عندما يسأله أحدهم لماذا لم يقاوم يرد قائلاً: وهل حاربت أنت. عندما يسأله أحدهم عن المقابر الجماعية يقول: اسألوا عائلاتهم سيقولون لكم إنهم كانوا لصوصاً متهربين من الجندية.

عندما يسألوه عن مقتل الإمام الصدر يسخر هازئاً ـ الصدر أم الرجل.

هؤلاء ليسوا هم أطراف اللعبة التى يستسيغها. هؤلاء مجرد أدوات للأمريكان، وهو لا يسمح لنفسه بالتورط معهم فى الحديث (**كلامه كان مقتضباً**) ولا أن يوليهم كثير اهتمام (**السخرية والهزء**)

لعبته الكبرى مع الأمريكان وحدهم دون سواهم.

ولعله من أهم الإشارات اللافتة ـ فى هذا المقام ـ قول

موفق الربيعى (**عضو المجلس الانتقالى**) عن لقاء وفد أعضاء المجلس وصدام أن الأخير «كان خلال اللقاء يُنقِّل نظره بين أعضاء المجلس وبين بريمر وسانشيز - وكأنه يحاول الاستنجاد بالأمريكيين لإنقاذه منا»

لكن الربيعى يخطئ تفسير ذلك الأمر.. لا يفهم تلك الإشارة البسيطة - الدالة بعمق على نفسية صدام.

الربيعى يفسر ذلك على هذا النحو: «.. وعندما انتهى اللقاء سألنا: خلصتوا (**انتهيتم**) رايحين؟ وبدا واضحاً أنه كان يخشى أن اللقاء سينتهى بقتله كما حدث مع عبد الكريم قاسم» (**الحياة اللندنية. ١٦ ديسمبر ٢٠٠٣**).

لكن هذا غير صحيح، صدام لم يكن يخاف منهم بالتأكيد. صدام لا يقيم لهم حساباً ولا يرى لهم قيمة، إنه فقط يستغرب الأمر، إنه ينظر للأمريكان ولسان حاله يقول: ما دخل هؤلاء؟!.. ما شأنهم؟!... لم أحضرتموهم. نحن - أنا وأنتم - عظماء. كبار. لم ندخل وسطنا هؤلاء الـ... حسناً، صدام شتمهم بالفعل، ويقول الربيعى: إنه سبهم بألفاظ بذيئة.

ليست المسألة - كذلك - وطنية من صدام (**كما فسرها بعض الحمقى**) وإنما هى ببساطة عدم فهم صدام لموقف

الأمريكان؛ ولعله التجسيد الأول لصدام رؤيتين بالغى التباين: رؤية ذلك الكهل العابث الخارج من جوف الأرض ليستكمل عبثه القديم. ورؤية الأمريكان بكل براجماتيتهم وأهدافهم المحددة.

* * *



(٦)

صورة صدام حسين

(١)

هل الصورة التى ظهر عليها صدام حسين بعد إلقاء القبض عليه مهينة؟

يبدو أن الجميع يتعامل مع الأمر على أنه كذلك بالفعل. هناك غالبية عظمى تقول إن بث هذه الصورة (الشعر المنكوش، اللحية الطويلة، وكذا اختيار لحظة الكشف الطبى بالذات) قصد منه إلحاق الإهانة والمذلة بالرئيس العراقى. وكذا بالأمة العربية كلها من ورائه.

وقد قال البعض :إن عينيه دمعتا، وقال البعض الآخر إنه بكى لمرأى صدام على هذا النحو، وراح آخرون يقولون: إنها لحظة مذلة لا نظير لها فى حياة الأمة... إلخ.

فى الرد على ذلك، فإن قلة قليلة راحت تقول: إن هذه المهانة قد جلبها صدام على نفسه بأفعاله وسوء تصرفه، وأنه

وحده يتحمل أذاها ووزرها، وأن الأمة لا تشاركه فى ذلك.. إلى آخره.

لكن المهم هنا أن نلاحظ ـ مرة أخرى ـ أن الاتفاق مبدئى حول «الإهانة» وإن اختلف تفسيرها وتحديد الطرف الموجهة إليه.

وعلى الرغم من أن كثيرين قالوا ـ بألفاظ مختلفة ـ: إن كل من عنده حس وضمير وشعور.. إلخ (بل قال البعض: إن كل من عنده دم كذلك) سوف يتأسى لمرأى صدام على هذا النحو ويشعر بالمهانة البالغة والطعنة النجلاء الموجهة إلى صدر الأمة وكرامتها... إلخ.

على الرغم من ذلك، فإننا نريد أن نطرح السؤال: هل هى بالفعل صورة مهينة؟!

لكن لم؟!

صدام حسين أمضى ثمانية شهور فى التخفى والاختباء؛ فعلى أى صورة كنا ننتظر أن نجده عند القبض عليه، بكامل وجاهته وصولجانه كما كان الحال قديماً فى العراق قبل ٩ إبريل الماضى.

لأسباب أمنية من ناحية، ولأسباب تتعلق بشظف العيش ـ بالتأكيد ـ ولأسباب تتعلق بضرورة التنقل السريع والمتكرر

بين أماكن مختلفة ومتنوعة وفى أجواء بالغة التكتم والسرية، فقد كان من الطبيعى أن تكون هيئة صدام حسين مغايرة كلية لما كان عليه فى الماضى.

هل كنا نريد من الأمريكان أن «يحَلْقوا» له ذقنه ويرتبوا ثيابه قبل تصويره. لكننا كنا سنقول وقتها، «آه ما هذه الأبهة؟! ما هذه الأناقة؟! إنه لم يكن هارباً إذن؛ لقد كان عندهم طوال الوقت، هو عميل لديهم بالتأكيد. والآن يخرجونه إلينا».

ألم نكن لنقول ذلك. فلنتذكر أنه عند مقتل عدى وقصى، قيل فى البداية ـ من جانب الأمريكان ـ أن ذلك تم، وأن القوات الأمريكية نجحت فى التخلص منهم.. هكذا دون بيان إضافى وصور.. فتشكك كثيرون منا، وقالوا لو هذا حقيقى لم لا يعرضون علينا صورهم.

فقام الأمريكان ـ رداً على ذلك وتأكيداً للأمر ـ بعرض صور للجثث ملتحاة مجروحة. فقلنا وقتها إن هذه الملامح ليست لأبناء صدام، فقام الأمريكان بعمل «ترميم» للجثتين فى مواضع الجروح وقاموا بالحلاقة لهما لإعادتهما إلى حال تشابه ما كانا عليه فى الأصل، وقتها قلنا إن ذلك عبث بالجثث وأن ذلك «حرام»!!

ما الذى نريده تحديداً إذن؟!

عند القبض على صدام حسين، ما الذى كنا نتمنى أن يحدث؟!.. أن يقدمه الأمريكان إلينا بالسيجار وببضعة سيوف من تلك التى اعتاد أن يشهرها فى فخامة أمام العدسات، وكذا بضع بنادق يطلق منها فى الهواء كما كان يهوى دائماً ـ بذراع واحدة!!

سوف يقولون «والكشف الطبى، ما شأنه. لماذا يعرضونه هكذا وهو خاضع لأيدى طبيب يفتش فى شعره عن الحشرات. وفى فمه عن شىء ما..».

لكن صدام سوف يخضع للأسر وليس فقط للكشف الطبى، بل إن ما تسرب من خطط الأمريكان لكسر عزيمته يشتمل حتى على تحديد ساعات معينة له لاستخدام المرحاض وحرمانه من النوم.... إلخ.

هل جرحت أحاسيسنا من مجرد لقطة واحدة؟! أما ما تناثر من أقوال بشأن معاملته فعلاً فلا يعنينا. هل الأمر مجرد أن مشاعرنا لا تقبل أن تواجه هكذا صراحة بأمر ما. أما ما يحدث فى الظلام وبعيداً عن أعيننا فلا يؤثر فينا كثيراً.. يمكن تحمله!!

ربما أراد الأمريكان بالفعل إعلان ذلك الجزء من التسجيل لصدام الذى يخضع فيه للفحص الطبى لبيان كم هو خاضع ومستسلم!.. إلخ. لكن أليست هذه هى الحقيقة بالفعل؟! «لقد حصلنا عليه» ـ «We got him» هكذا قالها بريمر فى افتتاحية المؤتمر الصحفى وهكذا جعلتها النيوزويك عنوان غلافها الرئيسى.

إنها لحظة واحدة فى صراع طويل، ونحن ننفى مسألة «الإهانة» هذه لأنها تبدو محملة بشحنة عاطفية لا معنى حقيقى لها فى إطار صراع كبير لا يحتمل العواطف، أو يزيحها إلى الخلف بالضرورة.

إذا كانت هناك لحظة مهينة حقاً، فهى لحظة سقوط بغداد مثلاً. وبالكيفية التى سقطت عليها. أما سقوط صدام بهذه الطريقة فأمر لا يؤثر كثيراً.،وهى مجرد عملية اصطياد حقيقى لفار من العدالة الأمريكية.

والسؤال الذى يشغل الكثيرين ـ للأسف ـ هو سؤال كيف يتحول رئيس جمهورية إلى مجرد فار من العدالة.

والسؤال الذى يعنينا نحن ونتصور أنه الأولى بالاعتبار هو كيف تدهورت الأمور لدينا إلى حد أن العدالة ـ للأسف ـ صارت أمريكية؟!

أما ما حل بصدام حسين فهو شيء ليس مأساوياً إلى هذه الدرجة التي يصورها كثيرون.

(٢)

وإذا أردنا أن نطرح تقديرنا الشخصي لصورة صدام حسين هذه لدى القبض عليه.. فإننا نعتقد أنها تحمل من الغرابة أكثر بكثير مما تحمل من الإهانة، إنها تبدو مناقضة لتاريخ طويل من الصور تختزنها الذاكرة له.

كما تبدو مناقضة للتصور المثالي المتأنق الذي يحيط بالشخصيات العامة ـ خاصة إذا كانوا من طراز «الزعماء».

ليست فقط غريبة؛ بل لعلها مخيفة كذلك.

قال البعض: إن صدام بدا لهم رجلاً ضائعاً مجهداً، وأنه استجلب عطفهم لذلك وأنهم يشفقون عليه.. إلخ.

لكني أعتقد ـ وهذا رأيي ـ أن صورة صدام حسين تلك تبدو مرعبة للغاية. والمعنى الكامن فيها لا يبتعث سوى الوجل والنفور.. ويزيد ذلك إذا ما طابقناها على ذلك المخبأ الذي وجد فيه.

كيف فعلها؟! كيف استطاع أن يفعلها؟! ليس فقط الاستسلام للعدو. ولكن ـ من قبل ذلك ـ أن ينزل إلى مثل

هذا المخبأ، أن يستخدم مثل ذلك المكان. ليس قبواً، هو قبر، قبر مدفون تحت الأرض بأمتار لا يتسع سوى له وحده. **(سخر بعض أعضاء المجلس الانتقالى وقالوا: إنه كان مع الجرذان والفئران. وأشار چورچبوش فى كلامه إلى زحف صدام خارجاً من قبوه..)**

لكننا نتساءل ـ فعلاً وبرغبة حقيقية فى العلم والفهم، ودون سخرية. بل بخوف حقيقى ـ كيف قبل صدام حسين أن تطبق الأرض عليه على هذا النحو أن يقبع هكذا فى بطن الأرض، فى حفرة. ألم يخش لحظة أن تنطبق عليه؟!.. ألم يقشعر بدنه من تلك الجدران السوداء؟!.. ألم يشعر بخوف ورهبة؟!

ولأن ذلك ليس مؤكداً؛ يزداد فزعنا من ذلك الرجل الخارج من جوف الأرض، من ظلمة الأرض، يبدو نوعاً ما من روح شريرة. من قوى مرعبة وحشية تصعد من الظلمة إلى النور حيث يتم إمساكها وإبقاؤها قيد السيطرة.

ولعله لم يحدث فى التاريخ أن تطابقت الصورة الرمزية لإنسان مع صورته البصرية كما فى هذه الحالة.

صدام السفاح القاتل الديكتاتور.. إلخ، كان رمزاً بشعاً لأسوأ

انحطاطات الغريزة الإنسانية وتدنيها، رمزاً أرادت المقادير له أن يتجسد فعلياً وبشكل مرئى بالفعل لدى خروج بطل الرمز نفسه ـ بجسده بشحمه ولحمه ـ من جوف الظلمات. من جوف قبر بهيئة تماثل المجاذيب بكل ما فيهم من غرابة وانفصال عن الشرط الإنسانى واتصال بقوى ما هناك بعيدة وغامضة.

فى حالة «مجذوب الدور» فقد كانت القوى التى سخَّر نفسه لخدمتها طوال عقود هى قوى الشر نفسه، أعتى قوى الشر. وعندما خرج كالسحرة، كالجان، من جوف الأرض، فقد كانت اللحظة مرعبة بحق.

لذا فإننا لا نرى فيها أى مجال للإحساس بشفقة أو رثاء، ولا نفهم كذلك أى معنى لمن رأى فيها إهانة أو مذلة.

الصورة مخيفة لا أكثر ولا أقل، هذا هو معناها الوحيد.

وهى فنية كذلك ـ حيث ينطبق الرمز فيها على الحقيقة.

ثم إنها فى سياق الاحتلال والمهانة الحقيقية التى يعانيها الوطن كله **(إذ يجد نفسه فى حاجة إلى من يأخذ بيده فى طريق الديمقراطية والحريات بعد نصف قرن من الاستقلال)** تبدو «طبيعية» كذلك.

أما القول بغير ذلك، فكلام فى غير المضمون، ومحاولة لتجميل الطغيان واستجلاب العطف عليه، وكذا عجز عن تحديد الأمور والأولويات ووسائل مواجهة الأحداث بما يقتضيه واقع الحال من قدرة وحزم. وكذا ما تتطلبه جسامة الصراع من ضبط للعواطف وعدم إنفاقها فى غير محلها الصحيح؛ خاصة إذا تم إهدارها على شرف ديكتاتور لم يكن لديه «شرف» أصلاً للبكاء عليه إذ يتم هدره.

هذه هى الحقيقة.

* * *



(٧)

الفاشية تلعق جراحها

١ ـ أساطير عربية :

هناك عدة أساطير تتحكم فى العقل العربى حالياً ـ بعد سقوط صدام ـ وهذا أمر بالغ الأهمية والخطورة.

فى مثل هذه المرحلة بالذات، وفى مواجهة هذه الظروف تحديداً، فإن الوعى سلاح لا غنى عنه ولا بديل.

اللجوء إلى جو الخرافات والأساطير ـ فى هذه الحالة ـ ليس فقط بمثابة تدمير مبدئى لأى جهد سياسى، أو مشروع سياسى قادر على التعامل مع الأزمة. وإنما هو بالأساس ـ وهنا خطورته الداهمة ـ بمثابة ركيزة مهمة وخطيرة لعودة الفاشية من جديد.

الفاشية تتغذى بالأساطير، وما يسود عالمنا العربى اليوم ليس مجرد حماقة، وإنما هو ـ قبل أى شىء ـ جهد منهجى

فى تأسيس وكفالة وجود الشروط الممهدة ـ نفسياً وفكرياً ـ للفاشية مرة أخرى.

كيف ذلك؟

يسود القول لدينا ـ مثلاً ـ بأن صدام حسين قد ظُلِمَ وأُهين. وأن الأمريكان أذلوه عامدين بعرض صورته عند القبض عليه على هذا النحو الذى عرضت به. يضاف إلى ذلك أن كثيرين يتشككون ـ أصلاً ـ فى أن يكون هذا هو الرئيس العراقى.

ثم نتمنى ـ بعد ذلك ـ أن تنطلق المقاومة فى ضربات قاصمة للاحتلال حتى تثبت أن سقوط صدام لن يفت فى عضدها. ويقول البعض الآخر ـ فرحين ـ أن سقوط صدام قد خفف عبئاً من على عاتق المقاومة فعلاً، وأن الساحة مفتوحة الآن للشيعة ولغيرهم... إلخ.

أليست هذه هى الأفكار السائدة اليوم فى العالم العربى..

هناك أوجه أكثر تطرفاً لذلك، كأن يرى البعض أن صدام رمز المقاومة والبسالة والصمود... إلخ. أو أن يحلم البعض بضربات أخرى توجهها القاعدة للأمريكان.

(وقد شجَّع خوفُ الأمريكيين أنفسهم وتحذير

الإدارة الأمريكية لهم فى مناسبة حلول رأس السنة من ضربات محتملة ـ من ذلك الأمل لدى كثيرين عندنا) ... إلخ.

هذه كلها أفكار مدمرة لعقل الأمة ووجدانها.

وهى مقدمة فاشية جديدة ربما لا تقل هولاً عن صدام حسين.

لماذا؟!

لأن القاسم المشترك فى كل هذه الأفكار هو رفض مواجهة الواقع وفهمه بطريقة صحيحة وسليمة. الأمر الذى ينجم عنه ـ بالضرورة ـ أن طريقة تعاملنا معه تصير بالغة الشذوذ والغرابة.

لقد ابتدعنا أسلوباً غريباً فى التعامل مع الأمور. ليس «الشك» وإنما ما هو أكثر من الشك. حتى إننا لا نجد له وصفاً.. ربما الوهم أو الخرافة.

«الشك» قاعدة منهجية فى الفلسفة ـ وكذا حتى فى أبحاث الجريمة ـ للوصول إلى الحقيقة.

أما الوهم والخرافة فيدمران أصل الواقعة ذاتها.

ولنضرب مثلاً بسيطاً. إذا توجه موظف ما إلى عمله

متأخراً، وتعرض لتوبيخ رئيسه على ذلك، ثم طلب منه الرئيس تفسير ذلك التأخير له وتقديم أسبابه. ما الذى ينتظر منه عمله؟

المنطق يقول: إن ذلك الموظف عليه أن يقدم سبباً ما: استيقاظه متأخراً، صعوبة المواصلات، متاعب صحية لديه كادت تمنعه من الحضور أصلاً... إلخ.

شيء ما على مثال ذلك.

لكن لنفترض أن ذلك الموظف قام بشيء ما آخر، شيء ما خارق للعادة والمألوف، فإذا به يقول لرئيسه: «لحظة واحدة.. أنا غير مقتنع بحقيقة كل ذلك. ما الذى يثبت لى أنك رئيسى بالفعل؟! ما الذى يثبت لى أنى فى مقر عملى فعلاً، لم لا يكون ذلك كله خدعة؟! لم لا تكون كل هذه المظاهر التى أعرفها ـ المبنى والمكتب والموظفين ـ ديكورات وممثلين تم استخدامها لتضليلى.

أوه.. سوف أتعرض لعقاب رئيسى الحقيقى، إنه ينتظرنى الآن فى مكان عملى الحقيقى. ماذا سوف أقول له؟! ولماذا تصنعون أنتم كل هذه المظاهر الكاذبة؟! ما الذى تريدونه منى.. إلى آخره».

إذا افترضنا ذلك؛ ما الذى سوف يعنيه الأمر إذن؟!

لعله الجنون.،لكنه بالتأكيد ليس «الشك» (**حتى الشك فيه شيء من العقل. بل هو أداة عقلية أساساً**). وإنما هو ذلك الذى نصفه بأنه الوهم أو الخرافة (**أقصى درجات اللاعقل**) حيث يتم تدمير كل شروط الواقع وعدم الاقتناع بها وعدم التعامل معها، وتصور خيال - وهم - سخيف، والتعامل معه على أنه هو الأصل والأساس. وهذا هو ما نفعله فى العالم العربى.

٢ - أسطورة صدام حسين:

فلننظر فاحصين إلى رأى - وجهة نظر سادت عدداً من الكتابات الصحفية التى علقت على خبر القبض على صدام حسين.

ما احتوته جريدة الأسبوع فى عددها الصادر فى ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٣ وهو عدد «تاريخى» بحق، إذ إنه يشكل تجسيداً نموذجياً لحالة اللاعقل التى سلف بيانها فى المثال السابق.

فى هذا العدد من الجريدة، هناك تصور خيالى: صدام حسين قبض عليه منذ شهرين - تم نقله إلى أمريكا - خضع للتعذيب من قبل الأمريكان - لم يعطهم معلومات - بوش أراد عرضه فى قفص فى البيت الأبيض - كولن باول رفض - تمت إعادته للعراق ثم تم الإعلان عن ذلك فى ١٤/١٢.

والتفاصيل كثيرة ومذهلة، دون أن يكلف الكاتب نفسه عناء الإشارة إلى مصادره.. بل إنه يتم عرض حوار كامل بين الرئيس الأمريكى ومستشاريه (**الذى نوقش فيه مسألة القفص الحديدى هذه**) دون أن نفهم كيف وصلت محاضر مجلس الأمن القومى تلك إلى جريدة الأسبوع التى انفردت من بين كل صحف العالم بنشرها.

فى صحيفة العربى الصادرة فى ٢١ ديسمبر ٢٠٠٣ رواية لا تقل إمتاعاً. صدام قبض عليه قبل الإعلان عن ذلك بأسبوع. والدليل أن كثيراً من الكتاكيت والمواشى (كذا) فى المناطق المحيطة بالمكان الذى ألقى القبض فيه عليه قد ماتت وأن ذلك (**تفسير بالغ الذكاء والروعة**) نتج عن إطلاق غازات خدرت الرئيس العراقى قبل إلقاء القبض عليه، وكان من تأثيرها أن ماتت كل هذه الحيوانات المسكينة.

وفى رواية أخرى ـ فى ذات الجريدة، وليس هناك مجال للإحساس بالتناقض طالما أن الأمر كله مجرد أساطير ـ أن معركة هائلة نشبت من حول مخبأ صدام وأن ٢٥٠ جندياً أمريكياً قتل فيها، كما مات ١٥٠ من أنصار الرئيس، حتى تمكن الأمريكان ـ بصعوبة بالغة ـ من القبض على «المناضل» صدام.

وإذا كانت صحيفة العربى قد اقتصرت على هذه التفسيرات الرائعة السالفة ـ وطبعاً بلا أى دليل سوى موت الكتاكيت **(لعلنا بهذه المناسبة نشير إلى أنه من الضرورى أن ننتبه فى المستقبل إلى أن موت مجموعة أخرى من الكتاكيت ربما يعد إشارة مهمة إلى أن عزة إبراهيم، وهو الوحيد «المهم» الباقى حالياً طليقاً وخارج الأسر، قد سقط فى يد الأمريكان هو الآخر. وأنهم لم يعلنوا بعد. فلنراقب الكتاكيت)**.

وإذا كانت صحيفة العربى ـ كذلك ـ قد تحفظت فى توجيه المديح إلى صدام حسين.. فإن جريدة الأسبوع كانت سباقة ـ والعدد الذى أصدرته تاريخى كما قلنا ـ فإذا بها ناطقة بلسان هوى مشبوب.

فى المقال الرئيسى للجريدة ـ الذى كتبه مصطفى ومحمود بكرى ـ يرد بالنص: «. وبرغم كافة الإجراءات والضغوط والحقن المخدرة فإن صدام لم يبد أى نوع من التعاون مع فرقة المحققين الأمريكيين الذين توالوا عليه صباحاً ومساءً.

جرّبوا معه كل أنواع الضغوط النفسية والإغراءات الأخرى من أجل انتزاع المعلومات، إلا أن إجابة صدام على كافة

التساؤلات كانت مقتضبة وتتميز بالحدة فى كثير من الأحيان وكثيراً ما كان يصف محققيه بأنهم جبناء وأنذال وأنهم محتلون ليس للعراق فقط. ولكن لكل العالم. وكان دائماً ما يتوعدهم بضربات قاتلة سوف يسددها إليهم العراقيون....

كان رامسفيلد يتابع بنفسه مع چورچ تينيت رئيس جهاز الاستخبارات الأمريكية وقائع التحقيقات مع صدام حسين وكانا يتساءلان دوماً من أين له بكل هذه القوة فى الصمود؟ لماذا يرفض التعاون وتقديم المعلومات عن شعب تخلى عنه ورفاق خانوه... (صدام) يقول: .... لن أبيع بلدى العراق حتى ولو وقفت وحيداً. وحتى لو خانتى كل الرفاق والأصدقاء؛ بل وحتى لو أعلن الشعب العراقى كله التبرؤ منى، كانت إجاباته مذهلة وكان صموده أسطورياً.

فى مقال منفصل يكتبه مصطفى بكرى وحده تحت عنوان «بالعقل» ـ!!! «لحظة صدق» يوجه للرئيس صدام حسين الخطاب قائلاً:

«أبا عدى: من هنا، من قاهرة المعز، أكتب إليك كلماتى وأنت سجين فى غرفة مظلمة، وتحت سوط الجلاد، لن تفيدنى ولن تضرنى، ولكن صدقنى إن لم أكتب، إن لم أطلق حنجرتى فسأموت كمداً وحسرة على نفسى.

هذا ليس حالى أنا فقط يا أبا عدى هذا حال ملايين العرب والمسلمين الذين شعروا بالألم والمهانة وهم يرونك مخدراً تحت قبضة الكفار الذين لا يرحمون..... كنت تعرف أن أسرتك ستشرد، وأن بناتك قد لا يجدن شظف العيش. كنت تدرك أن أحفادك سيمضون إلى المجهول. كان بإمكانك أن تدفع أبناءك للهروب، لكنهم بقوا معك، وكانت معركة قصى وعدى وحفيدك مصطفى ملحمة تكفِّر كل الخطايا والذنوب. استشهد ولداك وحفيدك. كان الألم بادياً على صوتك الذى راح ينعى. أدرك أنك بقيت أياماً والطعام لا يعرف الطريق إلى جوفك. لكنك لم تهتز ولم تستسلم بل بقيت تبث الحماس فى النفوس وتتوعد المحتلين بمزيد من الضربات. بعت حياة القصور وارتضيت بحياة القبور. لكنك إنسان لا تعرف سوى طريق الكرامة. منذ عملية الهروب الكبير فى نهاية الخمسينات. تاريخ متصل وشجاعة نادرة وإيمان حقيقى بثوابت الأمة..

يا سيدى الرئيس، أنت الشرعى وهؤلاء جوقة من العملاء، هؤلاء مصيرهم إلى مزبلة التاريخ، لا تبتئس كثيراً. قد يقتلونك. قد يعدمونك، قد يبقونك، أبد الدهر رهين الأسوار. لكن حتماً سوف تأتى لحظة ما يندم فيها كل المخدوعين. العراق لن ينساك.. يحاولون ترهيبك وترغيبك.. لكنك

ترفض بإباء منقطع النظير. توجه إليهم الشتائم وتبصق على الوجوه. يعذبونك فتزداد عناداً. يوجهون إليك الإهانات فتزداد صلابه. لذلك أصبحت رمزاً فى زمن الخصيان والعبيد. لن أقول وداعاً يا أبا عدى. فمن رحم الأزمة ينبعث فجر جديد... وسنمضى إلى قبرك لنضع زهرة....»

وفى ذات الجريدة يعد أحد الكتاب أن يوم ١٤ ديسمبر إعادة ميلاد جديدة لصدام وأنه فى يوم الميلاد الثانى.. فى صعيد مصر منحته الأمهات بقايا كعك العيد كى يوزعه على رفاقه الصاعدين فى صفوف المقاومة. وفى لبنان خرج الكبار مع الصغار ليرحبوا بقدومه عليهم. ثم اصطحبوه فى رحلة إلى الجنوب المحرر كى يشاهد حبيبته فلسطين. وفى الجولان حملوه أمانة التحرير. أما فى مدن العراق فكان الاحتفال به أقرب إلى الكرنفال النضالى..»

ويستطرد الكاتب فيقول: «ستبقى أبا عدى فى خاطرى سيفاً لا يصدأ. وقمراً لا يغيب، ووعداً لا يموت. وعزماً لا يلين. ورمزاً لا يسقط.. وأملاً لا يخبو. وفارساً لا يكبو. وثائراً لا يناله التعب. وعلماً لا يكف عن الخفقان. ونهراً لا يتوقف عن الجريان. وبطلاً لا يغادر بطولته من المهد إلى اللحد.. وسلامى لك يا أغلى الرجال. وقلبى معك فى السراء

والضـراء. وليـتنى إلى جـانبك وأنت تكابد المـصـاعب والمـشـقـات. فـقد سبق أن أيدتك حـاكـماً فكيف أتخلى عنك ثائراً. سبق أن ناصرتك مستبداً فكيف أتخلى عنك مجاهداً... سبق أن باركتك وأنت تتحدى أمريكا فى عقـر دارها فكيف أتخلى عنك وأنت تتصدى لها فى عقر دارك.

ويختم الكاتب مـقـاله بأن صـدام «اتجـه إلى أقـرب مكان لتسجيل المواليد، وهناك شاهد حشوداً غفيرة تحمل صورته. وإلى جوارها شهادة ميلاد جديدة له موقعة من ٣٠٠ مليون عربى ومدون فيها البيانات التالية:

الاسم: صـدام حـسين. تاريخ المـيلاد: ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٣، مكان الميلاد: قلب الأمة العربية، مكان الإقامة: من المحيط إلى الخليج. الوظيفة: رمزاً للجهاد».

عنوان المقال نفسه مثير للانتباه: ١٤ ديسمبر ـ صدام يولد

من جديد. وكذا عنوان فرعى: مر على الفلوجة وحيا أهلها ثم حلق فاردصا جناحيه فى سماء الوطن العربى).

فى برنامج «الحقيقة» الذى أذيع على قناة دريم المصرية يوم السـبت ٢٠٠٣/١٢/٢٠ كـان أحـد مناصـرى الرئيس

العراقى يقول - كذلك - إن مشهد صدام فى قبضة الأمريكان يشابه - فى نظره - مشهد السيد المسيح فى أيدى الرومان!!

وقد أشار مقدم البرنامج - وائل الإبراشى - إلى أن أنصار صدام يقولون - استغلالاً لتسمية الأمريكان الحفرة التى وجدوه فيها بحفره العنكبوت - إن ذلك مثيل لما حدث عند هجرة النبى (صلى الله عليه وسلم) من ضرب العنكبوت بيته على باب الغار!!!

هذه الحماقات. هذا الجنون - الوهم - الخرافة. هو أفضل ممهد للفاشية.

هذه الأساطير بالغة الأهمية لخدمة الفاشية والتمكين لها.

هذه الأساطير تسهم - ضمن غيرها - فى إفساد أسس الوعى والحكم على الأشياء.

وتجليات ذلك كثيرة.

(فلنتذكر مثلاً أنه عندما قتل قُصّى وعدِىّ صدام حسين رحنا نقول: إن الأمريكان قتلوهم عامدين حتى لا يبقوا على قيد الحياة و«يتكلموا» ويقولوا عن أشياء كثيرة يريد لها الأمريكان أن تدفن معهم.

ومع ذلك فعندما تم القبض على صدام حسين. قلنا: إن الأمريكان خدروه وأنهم لم يكونوا يريدون قتله!!!).

.. إن تياراً سياسياً يتخذ من صدام حسين رمزه وبطله على النحو السالف بيانه لهو أكثر وضوحاً وانكشافاً من أن يحتاج إلى فضحه أو التساؤل فى شأنه.

إنها الفاشية صراحة دون لبس أو ادعاء..

٣ - أسطورة المقاومة:

فلننتبه - كذلك - إلى أن المقاومة العراقية حالياً لا تحمل أى مشروع للمستقبل. وإنما هى فى أفضل الأحوال تعيد استنساخ الواقع العربى - ما قبل الاستقلال. عندما كان النضال - بالأعمال الفدائية والتفجيرات - هو ذروة العمل السياسى ضد المحتل.

(ولقد كان ذلك طبيعياً وقتها).

لكننا نتغافل تماماً عن حقيقة أن ذلك حدث بالفعل قديماً. وأن المحتل قد طرد. وأننا حصلنا على الاستقلال فعلاً وكانت النتيجة المفزعة بعد ذلك كله: صدام حسين وعودة الاحتلال مرة أخرى!!!

لقد دار الزمان دورة كاملة وعدنا إلى نقطة الصفر من جديد.

وبدلاً من أن نتساءل كيف حدث هذا؟!. وبدلاً من أن نعطى أنفسنا فرصة لتجربة شيء ما جديد ومختلف. رحنا

بشكل عصبى انفعالى أهوج نعيد الكرة من جديدة. سوف نبدأ كما فعلنا منذ نصف قرن وزيادة مع العنف والعمل الفدائى!!

إننا لا نريد الاعتراف بمآسى وأهوال نصف قرن من الاستقلال. ولعلنا فى رد فعل مرضى قد سعدنا بالـ «المقاومة»، إذ تعطينا فرصة لتجاهل أصل الداء:

كيف صار صدام حسين أمراً ممكناً فى دولة الاستقلال؟!. كيف تحولت النظم الوطنية إلى ما هو أسوأ من «استعمار وطنى» حسب تعبير البعض.

هذا كله لا نسأله ولا يعنينا فى شيء.

حسناً. إذا رحل الأمريكان، ما النظام الذى سوف يحل مكانهم فى العراق؟!

لا نهتم، حتى لو عاد شيء ما على مثيل صدام حسين. لا يهمنا المهم هو إشباع تلك النعرة العنصرية التى ترفض أن ترى «عاصمة الرشيد»، «دار الخلافة»... إلخ فى أيدى الأجانب ـ الكفار ـ الملحدين،.... إلخ.

أليس هذا تفكيرنا؟!

لكن علينا أن نفهم ـ حقيقة ـ أن عصر الاستعمار التقليدى

انتهى من زمان طويل.،وأن عصر الاستعمار الجديد ـ وأمريكا أحد أكبر رواده ـ يستغنى عن حكم «المستعمرات» بالجيوش وأن الاقتصاد سلاحه الرئيسى فى السيطرة. بما يعنى أن الأمريكان ـ بالفعل ـ لن يبقوا طويلاً. وأنهم فى سبيلهم إلى ضمان استقرار الوضع لا أكثر ولا أقل. وإن خروجهم سيكون قريباً جداً؛ خاصة وأن القواعد العسكرية المنتشرة لهم فى كل مكان ـ على امتداد الوطن العربى طوله وعرضه ـ تغنيهم عن الاحتلال المباشر للعراق.

ولعل استمرار المقاومة ـ بالشكل الذى تتم به حالياً ـ يديم فترة وجود الأمريكان ولا يقصرها. ذلك أنه يؤكد لهم أن «الصدامية» متغلغلة فى جذور المجتمع وأن مصالحهم معرّضة للخطر وأن الوضع كله غير قابل للاستقرار بشكل سريع. وهكذا فإن عليهم الانتظار «قليلاً».

هذا ما ينتهى إليه عمل المقاومة بالفعل.

فى المحصلة فى النهاية. ماذا نجد لدينا:

وعى عنصرى ـ قبلى ـ عسكرى.. باختصار..

فاشية تنتظر لحظة تمكنها وانفرادها.

هذه هى الحقيقة.

٤ ـ الفاشية تتأهب:

للفاشية أسباب كثيرة ـ اقتصادية، اجتماعية، سياسية، فكرية.

لكن أحد أهم ممهداتها.. والمقدمة التى لا غنى عنها تتمثل فى حالة نفسية معينة، حالة من الهستيريا والفزع. الخوف والارتياب. الإحساس بالغبن وطمع الآخرين، المهانة والإذلال.. إلخ.

هذه الحالة تمسك بأعصاب الأمة فتفتك بها وتجعل من قدوم الفاشيين إلى السلطة بمثابة خلاص ـ ذروة الفعل ـ تجلى إرادة الأمة فى رفض كل ما سلف من ظواهر وعلل وكسرها كل القيود ومجابهتها كل الأعداء.... إلخ.

فى الطريق إلى الفاشية تصاب أعصاب الأمة بتوتر لا مثيل له. وتختلط كل المعايير.

على سبيل المثال، فقد كانت أسطورة «إذلال» ألمانيا والتعويضات التى قصمت ظهرها، كما أسطورة «الخيانة» فى الحرب من قبل الشيوعيين واليهود أحد أبرز ملامح الحالة النفسية العامة التى أوصلت ـ ضمن غيرها ـ الفاشيين إلى الحكم.

كانت تلك ـ إضافة إلى الانهيار الاقتصادى والمالى، وجبن الزعماء الاشتراكيين ـ الديمقراطيين، وتردد الحركة الماركسية وتخبطها ـ المقدمة الحاسمة ـ بالفعل ـ لوصول هتلر إلى السلطة.

لذا فإنه من الواجب ـ لقطع الطريق على عودة الفاشية مرة أخرى ـ التعرض بكل حزم للأساطير الممهدة لها.

وفى مجال الكلام عن الفاشيات العربية، وقد سقط للتو أحد أكثرها بشاعة ـ النظام العراقى ـ وتم القبض على رمزه الأعظم ـ صدام حسين ـ فإن الأساطير الممهدة لها كثيرة.

ليس لدينا نقص فى الأساطير ولا فى الإحساس بالغبن ولا فى الأعصاب العارية المعرضة لأى تلف.

والأساطير فى عالمنا العربى كثيرة للغاية: نحن نعتقد ـ مثلاً ـ أن الخلافة الإسلامية سقطت بمؤامرة ومكيدة، وأن التيارات الإسلامية ـ كذلك ـ تنحى عن الحكم بتدخل من الغرب، وأن الأمريكان ـ أيضاً ـ يريدون سلب ديننا وتغيير هويتنا، وأن العالم كله يطمع فى ثرواتنا وإن الإسلام ـ وحده ـ هو الحل. وأننا نواجه ـ بالفعل ـ حروباً صليبية من نوع جديد.. إلخ.

هذه كلها أساطير هائلة ذات وزن وثقل، لكننا لم نتعرض

لها تفصيلاً. وقد اقتصرنا على التعرض لبضع أساطير إضافية وجديدة، من وحى العراق وما حدث فيه خلال الأسابيع الماضية.

وذلك بالنظر لما فى الأساطير العراقية من طزاجة وقرب عهد من ناحية. ولأنها ـ من ناحية أخرى ـ أكثر ديناميـة وأكثر تهديداً ـ فى رأينا ـ بأن تكون سبباً مباشراً لانبعاث فاشية جديدة تعيد عهد صدام حسين وتجدده ـ ولو بوجوه أخرى وأناس آخرين.

لكن الأساطير العراقية ـ رغم ذلك ـ لا تفهم ولا تؤدى كامل دورها إلا ضمن تلك التشكيلة الأوسع من الأساطير العربية.

تلك الأساطير التى تضع نفسها ـ تحت الطلب ـ لأى قوى تجد فى نفسها الجرأة والحزم على تجديد عهد الفاشية، فيزدهر فيها ومنها أمثال صدام حسين من جديد.

من الخطأ الفادح الاستخفاف بكل تلك الأساطير التى ينشئها البعض حول «مقاومة» صدام حسين ولا يجوز تجاهل تلك العاطفة الجياشة من حول «المقاومة العراقية».

كل هذه رواسب من عهد الفاشية التى انقضت لكنها فى ذات الوقت نطف جنينية للفاشية التى قد تولد من جديد.

وهذا ما يهمنا، هذا هو ما يثير الهم فى نفوسنا أكثر من أى شىء آخر.

هذه الأفكار الشوهاء سوف تكون بمثابة التيار الكهربى الذى يجمع بين أشلاء فرنكشتاين الممزق فى العراق، فإذا بالمسخ يبعث من جديد، يخلق من جديد.

وهذا أمر لا يجب السماح بحدوثه أبداً. وإلا فهو الانتحار والدمار الكامل للأمة.

الأمر الذى يقتضى منا التصدى بكل عزيمة وقوة وحزم لهذه الأفكار ومناهضتها والقضاء عليها فى مهدها.

هذه ضرورة حياة أو موت، ولا مجال فى شأنها للمساومة أو التهادن.

فلنحذر الغفلة، الفاشية لم تقتلع جذورها بشكل كامل بعد، والصراع - ضد كافة أوجه التخلف - مازال طويلاً طويلاً.

المهمة لم تنته بعد، وعلى عاتقنا تقع مهمة إتمامها.

الصراع مازال مفتوحاً. لم يحسم بعد، الفاشية تتأهب وكل شىء لا يزال معلقاً.. كل شىء لا يزال معلقاً.

* * *

المحتويات

إهداء ٥

القسم الأول :

من سقوط بغداد إلى سقوط صدام

١ ـ المقاومة على طريقة صدام حسين............ ٩

٢ ـ إرادة الديكتاتور ١٧

٣ ـ شياطين صدام حسين ٢١

٤ ـ محاولة لرسم ملامح الديكتاتور ٢٥

٥ ـ كيف يعيش صدام حسين؟! ٣١

القسم الثاني :

صاعداً من قبو

١ ـ لماذا لم ينتحر ٣٩

٢ ـ نورمبرج عربية ٤٩

٣ ـ من يحاكم صدام ٥٩

٤ ـ تحولات المجتمع ـ جذور الصدامية ٦٥

٥ ـ صاعداً من قبو ـ التحليل النفسي لصدام حسين .. ٧٩

٦ ـ صورة صدام حسين ١٠٥

٧ ـ الفاشية تلعق جراحها ١١٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٥/٣٣٢٢

I.S.B.N. 977 - 01 - 9477 - 8



تبدو السياسة من بعيد عالماً معقداً، مليئاً بالرسوم والطقوس، محتشداً بالتفاصيل والبروتوكولات والللقاءات والبيانات.. شيء مرهق جداً.

كما تبدو فكرة الثورة ـ أو الانقلاب ـ كذلك وكأنها شيء ما غامض، قدري، غير مفهوم، لحظة تحل. يوم ما يجيء فإذا بنظام كامل ينتهي وآخر يقوم محله.

الثمن ٥٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب